أشياء الليل

قصص قصيرة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عنوان الكتاب:

أشياء الليل / قصص قصيرة

الحجم : 14X22 cm

الكاتب:

طارق لحمادي

- الطبعة الأولى -

ردمك: 9789931882336

الإيداع القانوني السداسي الأول مارس 2022

دار الكتاب المعاصر

للنشر والتوزيع

دار الكتاب المعاصر

حي 600 مسكن أل بي بي ، أحمد مدغري

الرويبة - الجزائر

الهاتف:

+213(0) 560439244

+213(0) 650439646

mdl.contemporain@gmail.com

حقوق النشر محفوظة

لدار الكتاب المعاصر 2022

الأفكار الواردة في هذا الكتاب مصدرها المؤلف

ولا تتبناها بالضرورة دار الكتاب المعاصر

طارق لحمادي

أشياء الليل

قصص قصيرة

دار الكتاب المعاصر

الإهداء

إليك..

متخفيّة في سرّي..

بادية في عينيّ..

إليك..

أرفع هذه الأحلام...

مقدمة

ليست الأحلام سوى حقيقتنا الجوهرية، العجينة (المفتاح) للنفس البشرية في جدلها المتشعّب، والصورة المثلى المجلوة من بين ركام الوعي المخادع وتلويناته المريبة، فالحياة في صورة (الوعي) تسكتُ دوما عن تقديم الخامة الحقيقية منها ومن النفس دون تدخّل وتشذيب، والأمر هنا لا يعدو كونه حالة لاإرادية تخرج عن يد الوعي لما يصادفه هذا الوعي من تربية ومعرفة وقيم ومعايير ومثلٍ وأخلاقيات تتشارك كلٌّ بنسبتها في قول الحياة بوعي مركّب يشذّ عن قاعدة البساطة والعفوية والمباشرة والسذاجة التي تعرفها الأحلام.

الأحلام التي تميل إلى قول (ماضٍ) من التقاطات الحياة وحاجاتنا ورغباتنا العميقة من دون تشويه وجه هذه الحاجات أو مواءمتها مع الأطر والأنساق التي حدّد بها الإنسان حياته، لتبلغ بها (حاضر) الحلم في بنائه

اللامنطقـي، ثـم تسـتشرف بهـا وجـه (المسـتقبل) في صـورة اليقظـة التـي يـأتي فيهـا دور عمليـات الإسـقاط والقـراءات والتأويـلات.

مـن هنـا يبـدو الحلـم كجسـر بـين واقـع قديـم وآخـر جديـد، كـما يبـدو لمسـة تعويـض إشـباعي لـردم رغبـات نفسـية يعجـز الواقـع عـن تحقيقهـا في ظـل تسـييج ذات الواقـع بأوامـر جـزرٍ مختلفـة، لكـن أحلامنـا عـلى مـا فيهـا لا تقـدّم لنـا في النهايـة أكـثر مـن ملامـح حـوادث متداخلـة برباط غـير منطقـي يحمـل الصـورة الكليّـة إلى بنـاء سريـالي يخلـو مـمّا يتعشّـمه الفـنّ.

نعـم حياتنـا بحاجـة إلى الأحـلام (حتـى عـلى وهنهـا) وهـي ضرورة نفسـية لا غنـى للكائـن البـشري عنهـا، ولكـن، هـل الفـن بحاجـة إلى الأحـلام ليقـول حقيقـة النفـس كـما يجـب؟ وهـل بإمـكان الأحـلام عـلى شـكلها السريـالي المتدفق المفتقـد لمنطقيـة الفكـرة والصـورة في أكـثر الأحيـان.. كـما في كل حلـم.. أن يسـوق لنـا كتابـة فنيّـة يعتـد بهـا وهـل يسـيغ لنـا سـؤال الجماليـة أن نخـون في أغلـب التصـوّر طينـة الحلـم بإزميـل الوعـي لتقديمـه بالتشـذيب الـذي يخـرج بـه عـن نقـاوة روحـه ويحوّلـه إلى مجـرّد كتابـة واعيـة، مدركـة، حـاضرة المنطـق، مغيّبـة لـكل الحقيقـة التـي ينـوء بهـا الحلـم؟

تجاذبتني هذه الأسئلة وغيرها وأنا بصدد كتابة هذه الأحلام التي تفاوتت صنعتها، لامتزاجها بحوادث الواقع وتوليفها بالرموز الفكرية، وخلق ذلك التناغم بين لحمة الواقع في وقعه الأصيل الكامل من جهة، وبين عصب الوعي الذي يشدّ تلك اللحمة إلى أفق الإدراك والمعنى والدلالة من جهة أخرى، وحاولت قدر جهد الفنّان (إن كان لي من هذه الصفة نصيب) أن أرفع أحلامي من مستوى ذاتيتها إلى كونها العام، وأن أخرج بهذه الأشياء من ظلام الليل إلى نور القراءة.

الحلم 01

رأيت فيما يرى النائم...

أننـي أجـري في مدينـة فارغـة، كان الصبـاح في أوله، خيوط شمسـه تتـدلّى عـلى الشرفـات والأسـطح والأرصفة، لا أثـر لمخلوق غـير خشخشـة حـذائي ولهـاثي المتصاعـد، المدينـة كبـيرة، عامـرة بالخـواء، عمرانهـا في تشـكيل بديـع يـسرّ الناظـر، وأشـجارها متفاوتـة الطـول تقطـر خـضرة، نوافيرهـا تتوسـط السـاحات المزيّنـة بالفسيفسـاء، وكلّـما جريـتُ زاد إعجـابي بمـا يحيطنـي مـن نعيـم، لم يصبنـي العيـاء ولا تـسرّب الملـل إلى قلبـي مـن ركـض اتصـل وطـال، فمـررتُ بـدار البلديـة ومحافظـات الشرطـة ومجلـس القضـاء والمسـاجد والمـدارس والمعاهـد والـدور والفلـل والأسـواق والحظائـر والمستشـفيات والصيدليـات كـما رأيـت الحمامـات والمسـابح والملاعـب والمكتبـات والمسـارح ودور السـينما، أضـواء تلـوح في الواجهـات، وإشـارات تغمـز بـلا هـدف واضـح، سـيارات مركونـة وأخـرى متوقّفـة مفتوحـة الأبـواب في قلـب الطريـق.. لا شيء يـدل عـلى الحيـاة والأحيـاء غـير آثارهـم، كل شيء ببريـق جدّتـه ولـون عذريتـه الأولى، وأيـن اختفـى

النـاس بهـذا الشـكل المفاجـئ الغريـب؟ ومـن أيّ الـدور نزلـتُ أنـا؟ وكيـف اندفعـتُ في جـري متصـل لا بدايـة ولا نهايـة لـه؟

منـذ الصبـاح، يتصـل ركـضي بملاحظـاتي، وعـلى عينـيّ أطنـان مـن الأسـئلة المتراكمـة، المدينـة كبـيرة لا حـدود لنهاياتهـا، وكلـما جريـتُ في طريـق سـلّمتني إلى درب جديـد، آملـتُ في خـلال ذلـك أن يتناهـى إلى سـمعي نبـاح كلـب مـن بيـت أو مـواء قـط شـارد، كـما وطنّـت النفـس عـلى بعـض الصبر لعلّنـي أنتهـي إلى أزيـز موتـور سـيارة عابـرة أو صـوت امـرأة مـن شرفـة، فكّـرت في إمكانيـة خـدش ورم هـذا الصمـت بـأيّ طـارئ يعيـد للحيـاة دمهـا الحـيّ، بـدا الـصراخ هـو الحالـة المواتيـة لـو أردتُ أن أنعـم ببعـض الصـدى عـلى الأقـل، لكننـي خجلـتُ مـن نفـسي، كيـف لي أن أفتـح فمـي مصـدرًا صوتًـا هـادرًا يفسـد جـلال مـا أنـا فيـه؟ ثـم إنّ هـذا اللهـاث سـوف يحرمنـي مـن أيّ محاولـة نـداء، ووجدتنـي أركّـز كل تفكـيري عـن الجـدوى مـن بنـاء مدينـة بمثـل هـذه الروعـة إن كنـتُ وفي خـلال كل هـذا الجـري المتصـل، لم تقـع عينـي عـلى مقـبرة واحـدة.

الحلم 02

رأيت فيما يرى النائم...

أنّ الدنيـا ليـلٌ والمقهـى الوحيـد في الحـيّ مُضَـاء بالكامـل، وحركـة أشـباح بشريـة حـول نـور بابـه المسـفوح عـلى الطريـق، بـدا المنظـر كـما لـو أنـه لفراشـات متطايـرة حـول قنديـل «كاز»، ورغبـتُ في المـضي إلى المصـدر لاكتشـاف مـا خامـرني مـن شـكّ، لكـن الخـوف أقعـدني عـن التقـدم خطـوة أخـرى، رحـتُ بعدهـا أرقـب المـكان مـن بعيـد لعـلّي أظفـر بمعرفـة تقـود قلبـي إلى اليقـين، إذ ليـس مـن عـادة المقهـى أن يُفْتَـحَ في مثـل هـذا الوقـت.

باتـت حركـة الأشـباح بالنسـق نفسـه الـذي رأيتـه أول مـرة، لم تتغـيّر أبعادهـم ولا اسـتجدّ خلـطٌ في مواقـع تنقّلهـم، الظـلال عينهـا في رسـم واحـد متقـن بغايـة البراعـة والدقّـة، والضـوء بالإشـعاع المريـب نفسـه، ولا طريـق إلى بيتـي غـير هـذه الطريـق التـي اعترضنـي فيهـا الرجـال بتلـك الصـورة العجيبـة مـن التشـكيل، لا منـاص مـن أخـذ الحيطـة والحـذر مـن رجـال لا تعـرف عنهـم أيّ شيء، يتطايـرون في حركاتهـم المثلى، فيسـدّون

المنافـذ التـي تتوهّـم نجاتـك منهـا.

بقيـتُ كـما أنـا، ألهـثُ بعينـين مفجوعتـين بالسـؤال، وأرسـم خططـي الفاشـلة للنجـاة مـمّا أوقعـتُ نفـسي فيـه.. أكان عـليّ أن أجـيء في مثـل هـذه السـاعة، فـلا أعـثر لنفـسي عـلى سـبب مقنـع لوضـع الرجـال في طريقـي؟ وتجاذبنـي شـذا بخـور مـلأ الفضـاء ووقـع أحذيـة عسـكرية دكّـت صمـت الليـل، وصـوت يتسـلّل مـن غفـوتي كأنـه الخـلاص:

- مرْ، فالطريق آمنة.

الحلم 03

رأيت فيما يرى النائم..

أننــي أقــفُ عــلى أرض فارغــة خــضراء تحيطهــا التــلال الفســيحة. خيّــل إليّ لأول وهلــة أنهــا الجنّــة كــما جــاء وصفهــا في القــرآن الكريــم، واعتمــدت عــلى ذاكــرتي في اســتحضار آيــة واحــدة تثبــت صحــة زعمــي، فلــم أجــد في روحــي حرفًــا واحــدًا مــن كلام اللــه تعــالى، اكتســحني بعدهــا خــوف عظيــم، وأنــا أرى الرجــل الوحيــد في تلــك المســاحة مهــرولا نحــوي، مســندًا عصــا بيزبــول عــلى كتفــه اليمنــى، وبيــده اليــسرى بــدا كأنــه يســحب رأس امــرأة مــن غــير جــذع.

الحلم 04

رأيت فيما يرى النائم...

أننـي في العـام 1993 يـوم تخرّجـي مـن المعهـد، ألـفّ أدراجًـا حديديـة مكتبيـة بسـتارة النافـذة، ولاحـظ بعـض أصدقـائي همّتـي العاليـة فيـما أقـوم بـه، فأومـأوا لي أن أكمـل فعلتـي، إذ بـدا لهـم أنّ مثـل تلـك الطريقـة في نهـب الأدراج لـن يتسـنّى للحـرّاس كشـفها، عرفـت حينهـا أنّ روح الإجـرام مسّـتني كشـيطان رجيـم، لففـتُ الأدراج عـلى طولهـا بالسـتارة، وقـد بـدا أنّ لهـا مفاصـل فولاذيـة تيـسّر أمـر التوائهـا فتجعلهـا كالعجينـة الطيّعـة بـين يـديّ، ثـم اتجهـت نحـو البـاب الخارجـي، فلـم يعـترض طريقـي أحـد..

سرنـا مـن المعهـد - وهـذا مـا تخيّلتـه - لكـن للحـقّ، فقـد كنـا نسـير مـن بيتـي نحـو) الفيـلاج (village، أكّـد صحـة علمـي رخامـات وشـواهد القبـور التـي مررنـا بهـا، هـي المقـبرة ذاتهـا التـي عبرتهـا سـنوات طفولتـي وأنـا في طريقـي إلى المدرسـة،

تذكّرت ذلك من كمّ الخوف وخيالات الأشباح التي رمتني بها كلما كنت وحدي..

بكيتُ الآن من خوف مقيم بداخلي، وحين سُئلت عن ذلك عزوتُ الأمر إلى حادثة طفولة لم يرها غيري، فرقّوا لحالي، وقالوا فيما قالوا: إنّي عبقرية تستحقّ الاهتمام، فصاحب خيال خصب مثلي يصنع المعجزات.. أقسمت لهم حينها بأغلظ الإيمان بأنني أقول الحقيقة، فتضاحكوا، وطلبوا لي ماءً.. من أين جاء الماء؟ لستُ أدري..

كل الذي عرفته أني شربتُ حتى ارتويتُ، وواصلنا السير وأنا أحمل أدراج المكتب من غير عناء، وأسلك طريقًا جديدة وحدي بعد أن تفرّق شمل زملائي بين دروب مختلفة.

كان هذا منذ عام 1993، أقصد منذ أن استيقظت على حاجتي إلى شربة ماء، مكتشفًا بالصدفة البحتة بأنّ الأدراج لا تزال بين يديّ.

الحلم 05

رأيت فيما يرى النائم...

أنّ حفنــة مــن العســاكر تحلّقــوا حــول بقــرة عاجــزة، يحملــون بأيديهــم دلاءً ونصــالاً حــادّة عكســت وهــج الشــمس عــلى التــلال، اندفعــت البقــرة بيــأس محاولــة الهــرب باخــتراق صفّهــم، لكــن وثاقهــا المشــدود إلى وتــد قديــم حــال دون فلاحهــا، تقــدم أحدهــم منهــا بثقــة ومهــارة، فكمّــم فمهــا وعصــب عينيهــا بخرقــة ســوداء، وانــبرى آخــر بعــد أن أنــزل خوذتــه عــلى الأرض إلى إضرام نــار عظيمــة سرعــان مــا عــلا دخانهــا في الفضــاء، هبّــت ريــحٌ، وسُــمِعَ خــوارٌ مريــض يمــلأ الأفــق، رأيــتُ بعدهــا النّــاس يتوافــدون مــن كل حــدب وصــوب..

كانــت البقــرة لا تــزال تصــارع بالرفــس والنطــح، وهــم يعاجلونهــا بضربــات سريعــة.. باســتطاعتهم ذبحهــا بيــسر لــو شــاءوا، فأنــا لا أشــكّ في قدرتهــم بحكــم قوتهــم وســطوتهم وهذه النصــال الحــادّة المرعبــة التــي تتأرجــح بــين أيديهــم، بمقدورهــم إنهــاء الأمــر في طرفــة عــين، وطــرح البقــرة أرضًــا تحــت أحذيتهم.

لسـبب بـتّ أجهلـه لم يفعلـوا، كانـوا يحيطـون بهـا إحاطة السـوار بالمعصـم، خوارهـا يمـلأ الفصـول، وهـي ترفـس الأرض في يـأس وعجـز، أمـا النـاس الذيـن اجتمعـوا للفرجـة، فقـد تقدمهم شـيخ معمّـم رافعًـا صوتـه الجهـوري:

- تراصّوا واعتدلوا، فإني أراكم من وراء ظهري يرحمكم الله.

الحلم 06

رأيت فيما يرى النائم...

أننـا قدمنـا إلى الشـقة النابتـة في طـرف الحـيّ، وحيـدة كانـت، يحيطهـا الصمـت وتـشرفُ مـن جهـة الـشرق عـلى خـلاء هـادئ لا حركـة فيـه، كانـت المـرأة تتعـثّر في سـكرها، أمـا هـو فقـد سـبقنا إلى البـاب الخارجـي يعالـج قفلـه بمفتـاح بـدا أنـه لا يسـتجيب. طـال وقوفنـا بالردهـة في انتظـار الفرج، فاسـتندت إلى الدرابزيـن وراحـت تدنـدن بلحـن مـلأ المـكان..

فُتِـحَ البـاب أخـيراً تحـت رحمـة لعناتـه، فدفعـه بغضـب وهـو يقـول:

- القفل بحاجة إلى بعض التشحيم.

في الداخــل لاح الضــوء كاشــفًا الــرواق الطويــل الــذي يصـل بـين الغـرف منتهيًـا ببـاب الصالـون، رائحـة قِـدَمٍ تفـوح مـن الأثـاث البسـيط، تقدَّمَنَـا بخطـوات قلقـة، وبـدت لي تحـت نـور اللمبـة منهكـة إلى أبعـد حـد، أحسسـتُ جسـدها الفـارع

وهـو يميـل عـليّ بمـا بقـي لـه مـن جهـد، أمـا هـو، فقـد أشـار إلى الكنبـة وخـرج..

جلســنا بارتيــاب، تبادلنــا النظـرات الفارغــة، في أعيننــا الصمــت الطويــل والخــوف المشــتعل مــن الآتي، ومــا الآتي؟ لا نعـرف لمـاذا أصرّ عـلى اسـتضافتنا هنـا، ثـم انسـحب.

في بـادئ الأمـر حسـبناه قصـد المطبـخ لإحضـار المزيـد مـن الـشراب، لكـن الانتظـار الـذي بـدأ لبضـع دقائـق زاد عـن حـدّه، اضطجعـت هـي مـن تعـب السـهر ودوار السـكر، وبقيتُ أحـرس المـكان بعـين لا تسـهو، لم تعـرف كـم اسـتغرقها النـوم حـين عـادت تسـأل بعينـين محمرّتـين بجمـر التعـب ولسـان مشـتّت:

- ألم يعد بعد؟

- يبدو أنه غادر..

- إلى أين؟

- إلى حيث يكون.

- وأين يكون؟

- لا أعرف، فنحن في آخر الليل وشقّته في طرف الحيّ..

واندلـع فينـا شـعور برهبـة كوننـا رهينتيـه، أيكـون قـد

أحكـم إغـلاق البـاب خلفـه؟ سـألتها إن كانـت سـمعت صـوت قرقعـة المفتـاح يـدور في القفـل، فأومـأت بالنفـي، وخمَّنـتُ بصـوت داخـلي عاجـز.. كيـف انسـلّ مـن بيننـا بخفّـة ريشـة؟ فـردت هـي كأنهـا سـمعتني:

- كيف لم نر ظلّه يعبر الشارع مثلا؟

لم نقـو عـلى النهـوض، شـدّنا اليـأس إلى الكنبـة، وقبـل أن نخلـد إلى نـوم عميـق قالـت:

- لقـد كـسر المفتـاح القفـل عـن آخـره، وأثـر هـذه الدماء عـلى أيدينـا هـي كل مـا بقـي مـن البـاب.

الحلم 07

رأيت فيما يرى النائم...

ســاقين عاريتــين تقفــان عــلى رمــل ناعــم، ونذيــرًا مــن داخــل روحــي يهتــف بي:

- لا ترفع بصرك إلى أعلى..

صدعــتُ للنــداء بــأن أبقيــتُ عينــيّ في مســتوى ســمانتيّ الســاقين، لا أزيــد أعلاهــما إنشًــا واحــدًا، بــدا مــن بياضهــما اللافح أنهـما لأنثـى، أكّـدتُ ذلـك لنفسي بخلوّهـما مـن الشـعر وبتلـك النعومـة التـي لا تحظـى بهـا غـير سـيقان النسـاء، إلاّ أننـي وفي قـرارة نفـسي اسـتغربتُ لهـذا الاسـتنتاج الـذي خلصـتُ إليـه.. مـن أيّ الأسـباب والعلـل جـاء؟ ومـا الـذي أوحـى لي بمثـل هــذه المعرفــة؟.. الرجــل أيضــا تكــون ســاقاه بالبيــاض نفســه والطـراوة ذاتهـا، كـما يمكـن للمـرأة أن تكـون مشـعّرة السـيقان، قويـة العضـل. كل هـذا لـن يغـيّر مـن الأمـر شـيئا مـا دمـتُ لا أسـتطيع النظـر إلى أعـلى بعـد أن اشـتعل الهتـاف في اللحظـة نفسـها التـي لمحـتُ فيهـا السـاقين.

بقــي كل شيء عــلى حالــه، الســاقان بوقفتهــما عينهــا، زاويـة انفراجهـما لا تتبـدّل، مـوتٌ كامـلٌ للحركـة، الثبـات الـذي يقتــل أيّ ملاحظــة جديــدة... قلــتُ في نفــسي: لــو تحرّكــتْ لأمكــن معرفــة مــا يتخفّــى، حافّــة فســتان، حافّــة دانتيــل مطـرّز، لـو ابتعـدتْ أكثر، فقـد تنكشـف الفخـذان، يُـرَى مايـوه الســباحة الفاتــن، فالرمــل دليــل البحــر.. غــير أنّ المشــكلة التــي تفنّـد احتـمالي هـو الغيـاب المطلـق للهديـر، لا صـوت لنـورس مثـلا، لا هتافـات أو أهازيـج مـن تلـك التـي يشـهدها الشـاطئ بمصطافيـه، كـما أنـه لا قـدرة لي عـلى ملاحقـة المـكان بعينـيّ، فأنـا محكـوم بهـذا الأمـر الداخـلي، النـداء الخفـيّ الـذي تفجّـر كلغـم في وعيـي، كأنـه الميثـاق مـن دون التفكـير في الطاعـة أو المعصيـة، بـل دون أن أفـوه بكلمـة وجـدتُ العهـد قـد حـدث، أطعـتُ دون إدراك ولا سـؤال ولا بحـث ولا استفسـار، لم أسـأل حتـى لِـمَ أنـا هنـا؟ ولمـاذا كان انبطاحـي بمثـل هـذه الطريقـة، مســتلقيا بــلا حــول ولا قــوة، وأمــر صــارم قذفتــه حقيقــة لا تفقههــا روحــي.. «لا ترفــع بــصرك إلى أعــلى...»

الســاقان باقيتــان، جامدتــان، أمــا حلاوتهــما فقــد بــدأت تتـلاشى شـيئا فشـيئا، تشـكّلتا بهيئـة سـاقيّ رَجُـلٍ أول الأمـر، نبت شـعرهما، تكاثـف، ثـم اسـتدقّا، عمّهـما السـواد، صـارا كقائمتـيّ خيــلٍ، الحافــران يغرقــان في الرمــل، بعــض الذبــاب المتطايــر ألهمنـي صـواب الرؤيـة، خيـلٌ عـلى الشـاطئ، لكـن الخـوف مـن

رفـسي يـكاد يمنعنـي مـن الـبرّ بوعـدي، لا مجـال لرفـع البـصر ولا للتراجـع حتـى.. والقائمتـان تتبـادلان خبـط الرمـل الناعـم فتنغرسـان فيـه، تفعـلان ذلـك مـن جـرّاء عضّـات الذبـاب الـذي تكالـب فمـلأ الليـل بطنينـه.

لم تكـن حـيرتي مـن غيـاب الذيـل الـذي وجـب أن يكـون خلـف القائمتـين أشـدّ منهـا في كـون هاتـين السـاقين لامـرأة أو لرجـل.

الحلم 08

رأيت فيما يرى النائم...

أننـي أتجـوّل في جنـان عامـرة بما لـذ وطـاب، تـراءت لي أنثـى عـلى هيئـة شـجرة، رفّ غـراب بهـدوء الواثـق مـن جناحيـه، ثـم حـطّ عـلى غصـن صدرهـا، ولم تمـض هنيهـة حتـى راح يـضرب حلمتهـا بمنقـاره المدبّـب، نـزف دم قـانٍ مختلطـا بلـبن ثلجـي، فانحـدرت سـيوله خطوطـا متشـعّبة عـلى الجسـد الفاتـن، لم تحتمـل الشـجرة الأذى الـذي لحـق بهـا، فرفسـت بسـاقها الأرض لعـلّ الغـراب يوجـس خيفـة فيطـير، ولكنـه ظـلّ واقفًـا عـلى غصنهـا غـير آبـه بمـا يجـري..

بـدأتُ أفقـد ثقتـي في طيرانـه، كان الـذكاء يلمـع مـن عينيـه الصغيرتـين، يعـرفُ أنّ الشـجرة لا علاقـة لهـا بالمـرأة، صحيـح أنهـا تطـرح الثـمار مثلـما تفعـل المـرأة، لكنهـا ليسـت هـي، تحـرك بقفـزة ناحيـة الـسرّة، أنشـب مخالبـه الحـادّة في لحائهـا حتـى يقـي نفسـه فاجعـة السـقوط.. اهتـزّت شـهوة

أغصانها أكثر، فتساقط المزيد من ثمرها، وبحركة تشبه هبّة يد الريح نزل الغراب على الأرض غير هيّاب، مستجمعًا كل قوته في مخالبه.

كان الدود هو آخر ما رأيتُ من ذلك الحلم، إذ خرج من بطن الثمرة وراح ينهش كل ما حوله.

الحلم ٥٥

رأيت فيما يرى النائم...

المــرأة وهــي تخطــو نحــوي بكامــل فتنتهــا، البلــوزة القصــيرة الزرقــاء وقــد كشــفت عــن ســاقين عاجيتــين، والوجــه الصبــوح الذائــب في تقاســيم الشــباب، لم أفكّــر كثــيرا في أمــر جهــلي بمعرفتهــا قــدر تفكــيري في حاجتهــا عنــدي، أنــا لا أملــك - لوجــه الحقيقــة - مــا أهبــه، معــدمٌ مــن طينــة هــؤلاء الفقــراء الذيــن لا حــول ولا قــوة لهــم، والمــرأة لا يبــدو مــن دلال مشــيتها وفتنــة جمالهــا وتقاســيم قدّهــا أنهــا بحاجــة إليّ أو إلى غــيري، حالــة ســحرية يتعــثّر بهــا الكائــن كــما يتعــثّر بنســيم ربيــع صباحــي. جــاءت مــن مــكان قــصيّ لم تدركــه معرفتــي، هكــذا فجــأة لقيتنــا وجهــا لوجــه، وببســمة طائشــة زرعــت حماســة الســؤال في لســاني:

- هل من خدمة؟

قالت من دون أن تطلب إذنا بالجلوس:

- مللتُ..

- ممّ؟

- من كل شيء..

وجـاء أخــي عـوض النـادل، وضـع الصينيـة عـلى حافّـة الطاولـة، وقـال:

- أعرف عشقك للقهوة، أما هي فلا أعرف طلبها..

-أيّ شيء..

- أيّ شيء؟

خرجت عن صمتها:

- أنا صائمة.

لســنا في شــهر الصيــام، ولا يــدل منظرهــا عــلى ورع، البلـوزة الزرقـاء مفتوحـة عنـد الصـدر، والعقـد الذهبـيّ ينتهـي بفـصّ مشـعّ بـين نهديهـا، كيـف لي أن أصـدّق؟..

في غياب أخي «النادل» وجدتني أسألها بغرابة:

- كيف يعمل شقيقي نادلا؟

ضحكت حتى ملأت المكان بجاذبية أنوثتها، مسحت بيدها الطرية على زندها، ثم حرصت على همس لا يبلغ غيري:

- أنا أصوم لأنّ لي به وجاء..

- يستحيل..

قالت تشرح ما غاب عن فهمي:

- أمـا أولادي فقـد كـبروا، لا يغرّنـك أنهـم في الجامعـة، مـا زال الشـباب يشـعلني، غـير أنّ تجربـة الـزواج في سـن مبكـرة تحطّـم كل رغبـة.

قلتُ بلهفة العطشان:

- بإمكانكِ الزواج مرة أخرى.

- لم يعد للتجربة من معنى.

وقبـل أن يتصـل كلامهـا ببعضـه، أومـأت لي بالقيـام بعـد أن سـحبت الكـرسيّ، وهمّــت بالخــروج، لحقتهــا دون تفكــير، سرتُ في إثرهـا كظـلّ ميّـت حتـى بلغـت بي تيديس(1) فأشـارت إلى آثـار الحجـارة بإصبعهـا قائلـة:

- شكلا هي مذهلة صح؟

- صح..

- لكنها خاوية لا حياة فيها، خربة من الداخل.. هذه أنا..

قلتُ بجرح:

- هــي لم تجـد العـين التـي تؤمـن بهـا كحالـة حيـاة لا أكـثر، ليـس كل مـا يهجـره النـاس يمـوت، هنـاك أشـياء لا تُعـرَفُ قيمتهـا بعيـون الخلـق.. قلّـة مـن تعـرف معنـى هـذا الجـمال وتحيـا فيـه وتحييـه معهـا، وأنـا هـذا الزائـر الوحيـد لمدينـة اسـمها... وتعـثّرت في معرفـة اسـمها، فراحـت تضحـك، تشـجّعتُ أكـثر، فقلـتُ:

- وأحيا فيها.. أقصد أحيا فيكِ...

- لن تحتمل الحياة في هذه الخرابة.

قلتُ بتصميم:

- لـن أهجـرك إلا إذا اخـترتِ ذلـك، هـي كل مـا أحببـتُ.. الجـمال منـا وليـس في ذات الـشيء، وقـد آمـن قلبـي بـكِ، فكـوني ديـن هـذا القلـب..

غشـاها الصمـت واستسـلمت لأطيـاف الذكريـات، ووجدنا أنفسـنا في غرفـة تخـدش الظلمـة زواياهـا، فيـما وسـطها مضـاء بكسـل مصبـاح، سـكبت لي كأس نبيـذ، فلـم يدهشـني أنهـا لم تـشرب معـي لأنـه ولحقيقـة لا أعـرفُ مراميهـا بـتّ مؤمنا بأنّنـا في شـهر رمضـان، سـألتني عـن عمـل شـقيقي، فقلـتُ لا أذكـر أنـه عمـل نـادلا قبـل اليـوم، فقالـت بعـد أن اضطجعـت عـلى

سريرها من تعب الرحلة:

- سأبكرُ الليلة في نومي لأجل عملي صباحًا.

استيقظتُ في اللحظة نفسها التي نامت فيها، لتواجهني صورتها، البلوزة القصيرة الزرقاء وقد كشفت عن ساقين عاجيتين وصدر مكتنز، الوجه الصبوح الذائب في تقاسيم الشباب، والكعب العالي وقد غفا على قدميها إلى ما لا نهاية..

(1) منطقة أثرية رومانية في قسنطينة

الحلم ١٠

رأيتُ فيما يرى النائم..

أستاذ التاريخ والجغرافيا يشير بمسطرة مديدة نحو السبورة التي علّق على سطحها صورة خريطة، انتابني شعور بالإحباط والخوف من جهل سوف يجعلني مثار سخرية بين أقراني، اعتليتُ المصطبة بذل لم يخفَ عن الأعين الرقيبة، حينها هبط صوته كاللغم في نفسي:

- أين تقع؟

عضتني الحيرة، وتجاذبتني ذكريات أوجاع قديمة، فاستحلتُ ريشة استلّتها الرياح من جناح طائر، ثم راحت تلهو بها فوق الأبنية والحقول والساحات العامة، تقلّبتُ بين هبوب الاحتمالات الممكنة والمستحيلة، ولسبب بتّ أجهله لم يلح الأستاذ على الإجابة، فقد ركن إلى بعض السكون الذي منحني مساحة كافية لأرى وأسمع، كنتُ حينها قد بلغتُ حديقة غنّاء ملحقة ببيتٍ حجريٍّ عتيقٍ، فرحتُ أدوّم

للنـزول حتـى انتهيـتُ إلى فـراش مـن العشـب المبلّـل غـير بعيـد عـن قدمـيّ امـرأة تنـشر غسـيلها:

- من أنتَ؟

مـلأني العجـب مـن السـؤال الفـارغ، كيـف تُسْـأَلُ ريشـة عـن ماهيّتهـا؟ ثـم إنّ السـؤال عـن الموقـع فـوق الخريطـة لم نـأت إلى حسـمه بعـد، وقبـل أن يرتـد إليّ وعيـي، همسـتْ:

- لا يهمّ الموقع، لا تشغل بالك به..

- لكنني مطالب بالإجابة عن السؤال.

- هو نفسه يجهل الإجابة.

- مستحيل..

- هذا هو الممكن الوحيد.

كيـف لأسـتاذ التاريـخ والجغرافيـا أن يجهـل الموقـع؟ أكان مجـرّد اختبـار ليعـرف منّـي مـا لا يعرفـه؟ ولكنهـا أضافـتْ:

- الحـدود تتغـيّر بسرعـة رهيبـة، لكـن الخرائـط تبقـى عـلى رسـمها القديـم، لأجـل هـذا يخفـق النـاس في تحديـد المواقـع بدقّـة.

لي عـذري الـذي يـبرّر جهـلي، أمـا آفـة السـخرية فـلا

منجـى لنـا منهـا جميعـا، وشـدّني إلى واقـع الحلـم مـن جديـد بتكـرار سـؤاله:

- أين الموقع؟

- الأصدقـاء والأعـداء، الجنـود والقتلـة، لا أحـد مـن هـؤلاء يـترك للخرائـط معنـى..

كانـت صفعتـه مدويّـة عـلى خـدّي، قويّـة إلى حـدّ استيقظتُ فيـه مـن نومـي، ورحـتُ أفتّش بعينـين قلقتـين عـن الموقـع الـذي كنـتُ فيـه.

الحلم 11

رأيت فيما يرى النائم...

أننـي معلّـق إلى سـاق طائـر عظيـم الخلقـة، سـمعتُ خفقـان جناحيـه ورأيـتُ منهـما تهـدّل ريشـه عنـد الحـوافّ. كان صريـر الريـح يشـعّث شـعري ويربـك اسـتقامة وجهـي، هـا هـي الأرض في الأسـفل تسـتحيل أبنيتهـا الشـاهقة إلى علـب كارتـون صغـيرة، وتمتـد تلالهـا المخـضرّة كالـزرابي، أمـا الطـرق فقـد اسـتدّقت إلى حـدّ بـدت فيـه كالثعابـين، وقبـل أن يرتـدّ بـصري إلى مـا أنـا فيـه، فوجئـتُ بالجبـل ينقسـم إلى نصفـين مـن رواء المخلـب الأسـود الضخـم..

هل كان ينوي أن يحطّ؟

عـاد يفـرد جناحيـه مـن جديـد، ثـم يـضرب بهـما كمجدافـين بنفـس القـوة والجـذب، فيندفـع كالسـهم، تراجعـت سـاقاه إلى الـوراء، فاتخـذ جسـدي وضعيـة مـن يتهيـأ ليلقـي بنفسـه في عـرض بحـر، حلـق بي دون أن أعـرف مـن أيـن جـاء

ولا إلى أيـن يمـضي، كنـتُ مشـدودًا إلى ساقه اليـسرى ببروتـال bretelle تحسّسـته فـإذا هـو ممسـوس بالبـلى... سـوف أقـع في أيّ لحظـة، الهـوة بعيـدة والريـح عاتيـة والخـوف يتناسـل في عينـيّ كلـما أفـرط في تحليقـه، إيقـاع طيرانـه يتغـيّر بـين مـدّ ساقيه وإنزالهـما، تسـاءلتُ بمـا بقـي مـن أمـل.. متـى ينتهـي إلى صخـرة أو عـشّ؟.. لم أعـوّل عـلى الأسـلاك الكهربائيـة، فمثـل وزنـه لـن يحتملـه غـير جبـل.

انتظـرتُ أن يحـطّ حتـى يأمـن قلبـي شرّ هـذا الخـوف، لكـن تحليقـه لا يتوقـف.. قطعنـا المـدن والجبـال والتـلال والهضـاب والبحـار والأنهـار، تسـاءلتُ في سرّي.. كيـف لم يصبـه التعـب ولا مسّـه العطـش، ولا كانـت بـه حاجـة إلى طعـام؟ كان تحليقـه هـو كل وجـوده، وليـأسي مـن نزولـه الأرض فكّـرتُ في فـكّ أربطتـي وتحريـر نفـسي مـن سـاقه، ومـا إن هممـتُ بفعـل ذلـك حتـى سـمعت صـوت أمـي يزجـرني:

- لا تفتح البروتال

قلتُ بحرج مكشوف:

- الحرقة في ....

فقالت بصوت عاد إليه الدفء:

- اسحب سحّاب بنطالك فقط.

ومـدت يدهـا، فنـزل السـحّاب بطريقـة سـحرية، وجـدت عضـوي الصغـير يتحـرّر، عمّـت فـوضى البلـل فـراشي، ونشـوة راحـة تتسـلّل إلى عينـيّ الصغيرتـين كـما يتسـلل الفـرح إلى عينـيّ طائـر أفلـت مـن قبضـة فخّ.

Bretelle أو الحمّالة.. حزام يشدّ البنطال إلى أعلى الكتفين.

الحلم 12

رأيت فيما يرى النائم...

أننـــي أقــف عــلى خريطــة، والخريطــة عــلى طاولــة، والطاولـة في قاعـة، والقاعـة داخـل بنـاء كبـير يبـدو كالسـجن، لا علاقــة لي بالمــكان في حــدود تســاؤل فــارغ.. لِــمَ أنــا هنــا؟.. لســتُ ممّــن يُضْرِبُــون عــن العمــل، ولا علاقــة لي بــأيّ حــزب سـياسي، حتـى عضويتـي في النقابـة فقدتهـا بسـبب عـدم تجديـد بطاقتــي منــذ تاريــخ بعيــد.

كل هــذه الأسـئلة لا تهــمّ، لكــن.. في اللحظــة التــي بــدأتُ أفكّــر فيهــا في كيفيــة خــلاصي مــن هــذه الأســوار، تناهــى إلى ســمعي صــوت ارتطــام غريــب، قرقعــة جســم خفيــف عــلى الأرض بــدأت بقــوة، ثــم ذاب صوتهــا في صمــت مريــب، لســتُ الوحيـد في البنـاء إذاً، والخريطـة التـي أقـف عليهـا لم تـأت عبثـًا، ومــن ألقــى بي هنــا لابــد وأنــه تركهــا كمفتــاح أقــود بــه نفــسي إلى مصــدر صــوت هــذا الكائــن الــذي يشــاركني الســجن..

المشـكلة أنّ الخريطـة بـلا معنـى، مجـرّد خطـوط والتـواءات، صحيـح أنّهـا تحـصر بينهـا بعـض البقـع المتباينـة الألـوان، لكـن هـذه البقـع لا تحمـل أسـماء ولا تشـير إلى أمكنـة معيّنـة، أيـن أنـا فـوق هـذه البقـع اللونيـة عـلى وجـه التحديـد؟ والصـوت لا يعـاود ولادتـه كـرّة أخـرى لأقتفـي أثـره. ألقيـتُ الخريطـة جانبًـا، بـدا أنهـا لا تقـدم الحـلّ الـلازم لخـلاصي، لا شيء يـدل فيهـا عـلى صنعـة هـذا البنـاء، مجـرّد خريطـة عاديـة كآلاف الخرائـط التـي كنّـا نتدارسـها في صـفّ الجغرافيـا.. الأمـر مقـزّز حـين تصطـدم بمثـل هـذا العبـث، تناهبنـي قلق عاصـف وخوف عميـق لا قـرار لـه، إلا أنّ كل هـذه الأحاسـيس المربكـة لم تحجب عنّـي عـلى الأقـل روح الفكـرة التـي أعيشـها.. في نفـسي قلـتُ: مثـلي لـن تنطـلي عليـه الحيلـة، شـاهدتُ الكثـير مـن أفـلام الرعـب التـي تشـبه وضعـي.. يوضـع البطـل في متاهـة، تُسَـلَّطُ عليـه الأضـواء، يُرْبَـطُ بسلسـلة إلى جـدار، تُمْنَـحُ لـه قدّاحـة أو كمّاشـة أو أيّ أداة سـخيفة يبتدعهـا السيناريسـت، ثـم تبـدأ معاناتـه الداميـة تحـت عدسـة كامـيرا ترقـب كل حركـة وكل نأمـة منـه، ليـس بعيـدًا أن أكـون تحـت رحمـة أعينهـم، فـأرٌ أبيـض يصـارع موتـه داخـل إطـار زجاجـي شـفّاف، مـن هـذه الفكـرة اللمّاحـة رحـتُ أبحلـقُ في السـقف وأمسـح الجـدران بنظـرات مريبـة، لا أثـر لكامـيرا ولا للأسـلاك، الجـدران بيضـاء عاريـة تمامـا مثـل بيضـة مسـلوقة.. لكـن، لِـمَ الخريطـة عـلى وجـه التحديـد؟

وجدتنـي أعـود إلى النقطـة عينهـا في دائـرة تفكـير مغلقـة لا أملـك في يـدي غيرهـا، وهــي بخطـوط خرسـاء تحـصر بـين تعرّجاتهـا هـذه البقـع اللونيـة الصـمّاء، لأول مـرة أنظـر إلى اللـون بمثـل هـذه النظـرة الميّتـة، نظـرة تتـوازى فيهـا الألـوان عـلى تباينهـا واختلافهـا فتقـف عـلى قـدم المسـاواة نفسـها، يبـدو الأسـود منهـا كالأبيـض والأسـاسي كالثانـوي والحـار كالبارد، خلطـة واحـدة متداخلـة لا تميّزهـا العـين ولا تـشرف بالرؤيـة عـلى هـدف محـدّد..

رغـم كل هـذا العصـف، فالحـلّ هنـا مـا دام صـوت القرقعـة قـد سـكت إلى حـين.. التقطـتُ الخريطـة مـن عـلى الطاولـة، طويتهـا عـلى شـكل عصـا، اقتربـتُ مـن الجـدار بحـذر ورحـتُ أنقـر عليـه نقـرًا خفيفًـا متصلا.. تـردّد الصـدى بصـوت فـادح، ثـم أعقبـه صـوت خريـر مـاء مختلطًـا بدندنـة أنثويـة لذيـذة، بـدا الأمـر في غايـة السـحر، فالجـدار كـما يبـدو يفصلنـي عـن حـمّام نسـائي، اسـتجمعتُ شـتات مـا مـر بي بالسرعـة التـي يتطلّبهـا الذهـن للحصـول عـلى جواب لـكل حيرة، بـدت القرقعة أنسـب لسـقوط صابونـة عـلى أرض لزجـة، اسـتمرت المـرأة في غنائهـا الحلـو كالسـكّر، كلماتهـا تجلّـت بوضـوح منسـابة بلحـن ملكـوتي حزيـن بعـد أن تراجـع صـوت خريـر المـاء:

مال حبيبي ماله *** كان مــعايا كان

مال حبـيبي ماله *** يا نـــاسي غضبان

عاداني عـــــاداني *** دون أسباب جفاني

خلاني خــــــلاني *** في همومي وأحزاني

منحـتُ قلبـي للصـوت الناعـس فـوق غيـم الريـح، فيـما انشـغلتْ أصابعـي بنـشر الخريطـة مـن جديـد، ليـس في نيّتـي الآن الخـلاص مـن هـذه الأسـوار، لم يعـد يعنينـي الرحيـل بقـدر رغبــة البقــاء التــي أشـعلها صــوت هــذا الغنــاء في أعصــابي، الخريطـة لا تشـير إلى بـاب، والقاعـة لا بـاب لهـا، بيضـة مسـلوقة سـاكنة، وقبـل أن أصحـو مـن سـكرات النشـوة كفّـت عـن الغناء:

- أعرفُ أنك هنا، وإلا ما كنتُ غنّيتُ..

فاجأني صوتها كصعقة كهرباء، فقلتُ برهبة:

- فأين نحن؟

- الحرّية لا تقع دومًا خارج الأسوار.

- كنتُ أعتقد أنني وحدي، لذلك فكّرتُ في خلاصي.

- الوحــدة ســجن، حتــى لــو ذهبــتَ إلى الخــارج فإنــك تمــشي إلى ســجنك.

- الخريطة معي، لكني لم أفلح في فهم طريقي.

- تركتُ لكَ باب الحمّام مواربًا حتى تعرف طريقك.

وانسـلّت مـن البانيـو، وقفـت خلـف السـتارة الشـفّافة تقطـر بكامـل الرغبـة، وكنـتُ أبحلـق في الخريطـة باحثًـا عـن طريـق الخـلاص.

الحلم 13

رأيت فيما يرى النائم...

الرجـل وهــو ينهرنــا برفــق الحليــم الــذي لا يملــك مــن التأنيــب غــير هــذه الفكــرة:

- ألا تشـعرون أحيانًـا بالضحـك حـين يتذكّـر أحدكـم نكتـة وهــو يــؤدي صلاته؟

قلتُ:

- بلى.

قلـتُ ذلـك رغـم كـوني لا أصـلّي، وفي لحظـة غامـرة انتابني إحسـاس بذلـك البعـد الشـاهق عـن الديـن، والتفتـتُ فلـم أجـد لهـما أثـرًا، سـألني كأنـه يحمّلنـي وزر اختفائهما:

- أين هما؟

تلعثمتُ، قلّبتُ البصر في المكان من جديد:

- كانا هنا..

- هنا أين؟

كيـف أدلـه عـلى المـكان؟ لا جـدار، لا سـتار، ولا أكمـة، الامتـداد بعذريتـه والجهـات الأربـع مفتوحـة عـلى مـدّ البـصر، للحـقّ فـإنّ حـيرتي تتجـاوز حيرتـه، وسـؤالي عالـق أكـثر مـن سـؤاله.. هنـا أيـن؟ قلـتُ بصـوتي الخفيـض كأنّي رجـع صـداه، لم يُخْـفَ عليـه قلقـي وتوتـري، لاحظـتُ ذلـك في عينيـه الجليلتـين وقـد حمّلهــما كل دفء مشـاعره، ثــم إنّ مجـرّد الاعــتراف والإقـرار بخطـأ مـا فضيلـة، فـما بالـك لـو كان اعـترافي بخطئـي في العبـادة.. بـلى يحـدثُ أن ينتابنـي الضحـك وخيـالي يطـارد حادثة أو يسـتحضر نكتـة، ومـا أكـثر النّكـت الخليعـة التـي أحفظهـا عـن ظهـر قلـب، والتـي أتبجّـحُ بهـا أمـام كلّ طالـبٍ للضحـك، ومـا أكـثر اسـتظهاري لهـا كتحـدٍ لأولئك الذيـن يعتبرون أنفسـهم أهـل نكتـة وظُـرف، عرفـتُ ذلـك فيـما بعـد حـين خلـوتُ إلى نفـسي، أدركـتُ أنّ غايتـي إفحـام غـيري، لا يهمّنـي ضحكهـم قدر اعترافهـم لي بالتفـرّد في قـول كل جديـد، مدهـش، غـير مسـبوق، ينفجـرون بالضحـك، يقهقهـون، يدخلـون في هسـتريا كاملـة، تختلـط دموعهـم باللهـاث، يتهـاوى بعضهـم عـلى الأرض، يشـير لي بعضهـم الآخـر بيـده.. أنْ توقّـف.. ارحـم.. كـف..

- أول مرة «نسمعوها»..

النكتـة العـذراء، بلسـاني تُفَـضُّ بكارتهـا، وعـلى آذانهـم يسـيل دمهـا لأول مـرة، يشـتعل الضحـك كحقـول اللـوز في نيسـان، أبيـض، مزهـر، شـفّاف.. وانتابنـي الضحـك في حضرتـه، افـترّت شـفتاي أول الأمـر، لجمتهـما، وقفـتُ أمامـه كمـن يـداري شـيئا في جـوف حلقـه، عـاد رأسي إلى النكتـة يحفـر فيهـا، ففضحـت وجهـي انقباضـات حـول العينـين، أحسسـتُ بوجنتـيّ تنسـحبان إلى أعـلى، لمعـتْ أسـناني، ثـم...

- أما زلتَ تضحك؟

غمـرني شـعورٌ بالخجـل، قبـل قليـل أبديـتُ لـه طاعـة عميـاء، وافقتـه عـلى قـولٍ لا يعنينـي، لكنـي أحـسّ الآن بحقيقـة الضحـك في غـير وقتـه، الضحـك الـذي يفسـد الصـلاة، ويجـرح التقـوى، ويشـوّه الـورع، ويعطـب حرمـة المـوت والأمـوات، بقـي يبحلـقُ في وجهـي.. سريعًـا عـدتُ إلى رشـدي أبـرّر لـه:

- لا.. فقط كنتُ أتساءل أين غابا؟

اكتسـحه صمـتٌ طويـل وضعنـي في حالـة ترقّـب، ثـم تقـدم بخطـى وئيـدة، وقـف أمـام النعـش مسـتقبلا القبلـة، وحـين رفـع يديـه بتكبـيرة الإحـرام، انفجـرت الضحـكات مـن كل مـكان..

الحلم 14

رأيت فيما يرى النائم...

أننــي أجـري في شِـعْبٍ، لا أعـرف مـا الـذي كان يطـاردني عـلى وجـه التحديـد، لكـن نبـاح كلاب تتناقلـه الريـح لا يمكـن أن يُخْفَـى عـلى أذن السـامع. المشـكلة أنّي حـين ألتفـتُ خلفـي يخذلنـي البـصر في رؤيـة أيّ شيء، كنـتُ حافيـا، حاولـتُ قـدر جهـدي في ركـضي المتّصـل ذاك تفـادي الأشـواك، ليتنـي انصعـتُ لأمـر أمّـي:

- اِلْبِسْ السبادري spadri

راوغتهــا، حملتــه لأثبــت لهــا صحّــة طاعتــي، حــين انشــغلتْ.. أخفيتــه في العُليّــة، وخرجــتُ..

- سـبادري نايلـون؟.. ومـع أقـراني الذيـن ينتعلـون أحذيـة رياضيـة باهظـة الثمـن.. يسـتحيل..

كنّــا أحــد عــشر أخًــا، وكلــما ســمعتُ ســورة يوســف

رأيتنـــي في الجـــبّ، أمـــا هـــي فتقـــول:

- باباكـم عـلى قـدّ الحـال يـا وليـدي.. يقـرّي ويـوكّل ويـــشرّب..

هــذا مــا يوجعنــي، الحقيقــة.. مــن أيــن لوالــدي بســدّ حاجـة كل هـذه الأفـواه؟ الحـلّ هـو أن أوهمها بطاعـة أمرهـا في انتعـال سـبادري - الفقـراء - وأمـا أقـراني فـإنّ لامبالاتهـم عـلى الحفـا أرحـم وأشـدّ وطـأة منهـا عـلى هـذا السـبادري الرخيــص..

حـين أعـود.. أختلـس الإبـرة، أسـلّها مـن بكـرة الخيـط بحـذر، أجلـس ثانيًـا رجـلي في حجـري، ثـم أبـدأ في تحريـك رأسـها عـلى أصـل الشـوكة التـي اخترقتنـي، ينفجـر الألم بحرقـة كلـما تلامســا.. هنــا.. أبــدأ الحفــر، أحفــر جلــد القــدم، ســماكته بســماكة جلـد فيـل، كل هـذا مـن أثـر الحفـا..

- الملعونــة لــو لم تكــن حــادّة، مــا كانــت لتخترقنــي بســـهولة..

أحفـر بـلا خـوف، أثنـي رجـلي أكـثر رغـم الألم الـذي يفتـك بمنبـت الفخـذ، يـتراءى سـاق الشـوكة، ألتـفّ حولـه بـرأس الإبـرة، وفي سرّي أتـضرّع إلى اللـه أن لا تعـرف أمّـي بمـا يجـري..

لأجـل كل هـذا كنـتُ أتفـادى الأشـواك في ركـضي، وقـد زادت حـدّة النبـاح في إثـري حتـى مـلأت سـمعي، بـدأتُ أفقـدُ القــدرة عــلى التركيــز للعثــور عــلى أيّ مخبــأ، شــجرة عاليــة أتســلّقها، حفــرة ألقــي بنفــسي فيهــا، بيــتٌ مهجــور أحكــم إغـلاق بابـه المتهالـك عـليّ. المشـكلة أيضـا والتـي لا يجـب أن تغيــب عــن ذهــن الكائــن أنّ الــكلاب تشــمّ، أنوفهــا اليقظــة، آذانهــا المديــدة، اندفاعهــا المتحفــزّ، ســعارها البــيّن وهــي تتشــمّم الأرض، ثــم تشــير بعضهــا إلى بعــض بنبــاح متقطّــع يخفــتُ أحيانًــا ليســتحيل إلى شــبه مــواء، لغــة تخاطبهــا التــي لا يفقههـا خوفنـا.. لا حـلّ إلا المفتـاح.. قلـتُ لنفـسي، ودفعـتُ يــدًا مرتعشــة إلى جيبــي، لكنهــا عــادت خائبــة المســعى.. الأصــل أنــه لا بيــتَ، فَلِــمَ المفتــاح؟!

النبــاح يعلــو أكــثر، يتداخــل، يســيل، ينهمــر، حناجــر الــكلاب تتنــاوب، لا تــدع أدنى فســحة للصمــت، الريــح تكــدّ في تقريــب وجودهــم أكــثر، الخــوف مــن أمّــي يحملنــي عــلى تفـادي الأشـواك، الـكلاب كلاب صيـد.. السـلوقي الأبيـض المبقّـع بالأســود، أذنــاه متدلّيتــان، عينــاه مظلمتــان ككهــف، نظراتــه يقظـة، أنفـه شـفّاطة روائـح، وهـم خلفـه يحملـون البنـادق.. كــم كلبًــا في إثــري؟.. لا أعــرف، كنــتُ فقــط أكــدّ كي لا تقــع قدمـي عـلى شـوكة، وكان النبـاح يشـتعل كالنـار، يمـلأ الشِّـعْبَ، يســدّ كل منفــذ..

حـوصرتُ أخـيرًا، تجـلّى كل شيء بكامـل تكوينـه، الـكلاب تتشـمّم المفتـاح النابـت في الأرض، بنادقهـم المصوّبـة نحـو رأسي، والألم يكـوي قدمـي مـن أثـر تمـاس رأس الإبـرة بسـاق الشـوكة، وهـي تؤنبنـي:

- يا شيطان.. أخفيتَ السّبادري كالعادة في العُليّة؟

السبادري spadri نعلٌ من النايلون بخس زهيد ينتعله أبناءُ الفقراء، شاعت صناعته في الجزائر سنوات طفولتي بين عامي 77 و78 .

الحلم 15

رأيت فيما يرى النائم...

أننـا اختلفنـا، فأطلقـت هـذا النّعيـق المـرّ، كانـت تحـرّك يديهـا في الهـواء بعصبيـة ظاهـرة، وترفـع صوتهـا بهـذا الـصراخ العـالي الـذي مـلأ الدنيـا. لم يفصـح الخصـام عـن حقيقـة أسـبابه، لكننـي أدركـتُ بشـعور مـا أنّ عتبـي عليهـا هـو الـذي ولّـد كل هـذا الجنـون:

- شعوركِ تغيّر..

- أنت تهينني كثيراً.

- الأمر لا يعنيك بأيّ حال، وما أكتبه لا يتجاوز الأحلام.

- الأحـلام هـي حقائقنـا، أمـا الواقـع فمجـرّد قنـاع يحوّلنـا إلى مسـوخ.

وقفــتُ مشــدوهًا أنظــر إليهــا بمــا بقــي فيّ مــن أمــل لإصــلاح ذات البــين، هــل يمكــن أن أخفــق في الواقــع كــما في

الحلـم؟.. راحـت تنظـر بـشرود مـن النافـذة، وحـين عجـزتُ عـن اسـتدراجها إلى ملاحظـة وقفتـي، عـدتُ إلى تقليـب صفحـات كتـاب قديـم، فراعنـي مـا وجـدتُ فيـه مـن صـور عـن هـذا الطائـر الشـؤم، وفكّـرتُ.. هـذا صنيعهـا، فـلا أحـد يدخـل مكتبي سـواها:

- كثيرات يدخلن مكتبك..

بدا كأنها تسمع ما يدور في خلَدِي، فقلتُ بضيق:

- بومٌ يا منى؟

- أين؟

- كل صور الكتاب تحوّلت إلى صور بومات..

تحوّلـت عـن النافـذة، اقتربـت بمـا يتيـح لهـا ملاحظـة الكتـاب معـي..

- كيف حدث هذا؟!

- لا أعـرف.. يبـدو أنّ أحدهـم يريـد الانتقـام منّـي بهـذا السـخف..

بـدا الكتـاب كاللغـم المرعـب، وغشـيتني وسـاوس لا حصر لهـا، تذكّـرتُ المـوت والأمـوات، رأيـتُ ظـلال المقابـر السـاكنة، وعـبرتْ رأسي ملامـح الجماجـم المعجونـة بالـتراب، حتـى قالـت:

- لا تنسَ أنني زوجة.

لم أعـرف ذلـك إلاّ لتـوّي، صعقنـي الخـبر، فضغطـتُ عـلى الكتـاب بقـوة، طـارت بومـة مـن قلبـه وحطّـت عـلى طـرف المكتـب، ثـم راحـتُ تديـر رأسـها بمـا يسـمح لهـا بملاحظـة كل تفاصيـلي، بـدا منقارهـا المعقـوف وامتـلأ وجهها بعينـين حزينتـين ، ومـا لبثـت أن أطلقـت صوتهـا بهـذا النعيـق المـرّ..

الحلم 16

رأيت فيما يرى النائم...

دميـة ملقـاة وسـط حشـدٍ مـن النـاس، كان الوقـت ليـلا، فانعكسـت أضـواء عربـات الشّرطـة والإسـعاف بوميـض خاطـف عـلى المـكان والوجـوه، لم أتعـرّف إلى أحـد في هـذا التدافـع الفوضـوي الـذي شـدّ فضولهـم. بـدا أنّ رجـال الشرطـة قـد وقفـوا كسـدٍ منيـعٍ أمـام معرفـة مـا يجـري، مـدّ أحدهـم شريطًـا أصفـر يفصـل بـه بيننـا وبـين الضحيّـة، والتفـتُّ أبحـث بعينـين قلقتـين عـن وجـه صحفـيٍّ يخـترق الحشـد يتأبّـط كامـيرا ومسـجّلا بيـده، خمّنـت أنّ ذلـك مـا يجـب أن يحـدثُ بعـد أن شـهدتُ الأمـر في مئـات الأفـلام، لكـن الرجـاء خـاب.. لا أثـر للصحفـيّ، فقـط، تدافعنـا بهمهماتنـا التـي تخـرج بـين الفينـة والأخـرى إلى مسـتوى السـمع:

- مسكينة استدرجها إلى هذا المكان المعتم، ثم قتلها..

رد آخر:

- الجثّـة لا تـزال سـاخنة، يبـدو أنّ القاتـل لم يبتعـد كثـيرًا عـن مـسرح جريمتـه.

أشـار الشّرطـي بإصبعـه نحـو شـفتيه طالبًـا الصمـت، فانهمكنـا في الوشوشـات مـن جديـد، اشرأبّـت أعناقنـا وتبادلنـا النظـرات الفارغـة والوجـوه الحجريـة البـاردة، كيـف تمـوت بهـذه السـذاجة الفجّـة؟ لا شيء يـدلّ عـلى القاتـل ولا سـبيل إلى معرفـة الضحيّـة.

كانـت الدميـة بـلا دمـاء، واحـترتُ كيـف يمكـن لكائـن قـضى نحبـه أن يكـون دون أثـر قطـرة دم واحـدة تـدل عـلى موتـه؟.. همـس لي أحدهـم:

- هذا زمن أمسى الكائن فيه بلا دم..

كـدتُ أصـدّق قولـه لـولا أننـي انتبهـتُ إلى جـرحٍ في يـدي بـدأ يلتئـم، خدشـته بدافـع التجربـة لأثبـتُ صحّـة ادّعائـه، فـإذا دمـي ينـزّ.. يسـتحيلُ أن يكـون الكائـن دون دمـاء، لكنـي أرجّـحُ أنّ المـوت سـمًا هـو الطريقـة التـي قضـت بهـا الضحيّـة.

انهمـك رجـال البحـث الجنـائي في تصويـر الجثّـة ورفـع كل شـاردة وواردة مـن مـسرح الجريمـة، لاحقـوا الآثـار وقاسـوا المسـافات، فتّشـوا جيـوب فسـتان الدميـة:

- لا هويّة لها..

قال أحد الرجال، فرد آخر:

- قد تكون انتحرتْ لسبب ما..

صرختُ من وسط الحشد:

- نعـم هـذا مـا خمّنتـه أيضـا، وأرجّـح أنّ ذلـك تـم بالســم..

ووجدتُ سبّابة الشرطي تشير نحوي:

- أنتَ.. نعم أنتَ قاتلها..

تدافعـت الظلمـة بحلكـة العمـى، وافـترّ ثغـر المجهـول عـن ضحكـة مجلجلـة، قدحـت العيـون بـشرر النـار تحـت وميـض الأضـواء، تشـنّجت الأعصـاب.. لا وقـت للـشرح أو التبريـر كـما لا يمكـن لأيّ كائـن أن يسـتمع إليـك، حسـبك الآن أن تدفـع الأذى عـن نفسـك، فـترد ضرباتهـم وتتفـادى بصاقهـم.. تماسـك، فالسـقوط يعنـي الـركلات التـي لا رحمـة فيهـا..

كـما كنـتُ أول مـرة في الرحـم، تقوّسـتُ، حضنـتُ رأسي بكلتـي يـديّ، دفنـتُ سـمعي تحـت تـراب الخـوف، لكـن الصـوت اخترقنـي بقسـوة:

- كيف يفكّر بزواجهما رغم فارق هذا العمر؟!

قال آخر:

- لا تزال طفلة..

دهسني ثالثهم بقدمه وهو يردّد:

- الشيب والعيب..

على وميض نور عرباتهم، لمحتُ الطفلة وهي تلتقط دميتها من الأرض، وحولي راح الحشد يكبر ويتّسع..

الحلم 17

رأيت فيما يرى النائم..

أننـي أقـف عـلى محطّـة فارغـة في انتظـار امـرأة لا أعـرف عنهـا أيّ شيء، قيـل لي: إنّ حـلّ مسـألة الحيـاة تقـع عـلى عاتقها، وأنّ الانتظـار هـو كل مـا أمكـن لي مـن بـين كل الخيـارات، رحـتُّ أتفحّـص الأفـق بعـين أنهكهـا الملـل، وأقتـل الوقـت برصـاص الحنـين إلى أيـام الخـوالي، ثـم مـا لبثـتُ أن صحـوتُ عـلى صخـب الحيـاة، أبـواق سـيارات، هديـر مـارّة، صيحـات باعـة، وصفـير قطـار، عجّـت الدنيـا ببهـاء الحركـة، وهـا هـي تطـلّ أخـيرًا مـن انعطافـة الشـارع، فيحتـضر الفـراغ ويشـعّ في قلبـي نـور الطمأنينـة:

- كنتَ في انتظاري؟

- نعم

- لأجل ماذا؟

افترســني الخجـل، فتلعثمــتُ.. كيــف لي أن أفــسّر لهــا مسـألة الحيـاة، وهــي الحيـاة نفسـها؟ ولاحظـتْ بعـين بصيرتها إطـراق رأسي، فقالـت:

- لا عليك..

- لا أعرف أين أمضي..

وقبـل أن تدلّنــي عـلى حـلّ يُـرضي قلبــي، انشـغلتْ عنّــي بامـرأة أخـرى وفـدت إلى المحطّــة، تبادلتــا حديثًــا شـيّقًا بــلا نهايــة لم أسـمع منــه غــير حركـة شـفاههما اللذيـذة، وفكّـرتُ في العـودة مـن حيـث أتيـتُ قانعًـا بلمسـة السـعادة السـحرية، لكـن خـوفي مـن لغـز الحيـاة الـذي سـوف يواجهنـي دون حـلّ شـلّ عزيمتـي وحملنـي عـلى الصـبر حتـى النهايـة..

* * *

أنتظـر الآن مثلــما أُوحَــى إليّ، وفي لحظــة ســهو منّــي اختفـت المـرأة بطريقـة غريبـة، بقيـتُ لحـيرتي وصـدى قلبـي يــردّد:

- لا حلّ للغز الحياة إلاّ بإحدى اثنتين المرأة أو الموت..

الحلم 18

رأيت فيما يرى النائم...

النافـذة تزحـف بصرير واهـن نحـو الجـدار، تدفعهـا يـدٌ بيضـاء خرجـت مـن قلـب العتمـة، ثـم تلاهـا وجـهٌ باسـتدارة بـدر. غمرتنـي نجـوى الحنـين وتزاحمـتْ نفـسي في ظلـمات السـؤال:

- لا موعـد بيننـا ولا أمـل في وصـل، فكيـف تناسـلت الدنيـا بـكل هـذا الشـذا؟

حفيـف الثـوب موسـيقى سـحرية، جسـدها يُلهـم المكان، والسريـر الـذي نـام عـلى الطّـوى عـاد فاسـتيقظ عـلى نـداء فواكههـا، لم تقـترب لأطـير بأجنحـة الأمـل ولا ابتعـدت لأغـرق في وحـل اليـأس، بـدا مكرهـا كمكـر فراشـة تحـوم حـول قنديـل، فاشـتعلت روحـي بمـا يكفـي لبعـث الجحيـم، وليأسـها منـي قالـت:

- لأجل حلمك الجميل سوف أكافئك.

- لكنني لم أحلم منذ أمد طويل.

- فماذا تسمّي ما أنتَ فيه؟

الحـقّ أنـه ليـس حلـمًا، هـذا عين الواقـع بكل ثقلـه، أرى النافـذة عـلى حركتهـا الوئيـدة تمـلأ صمـت الليـل بصرير واهن، كـما رأيـتُ اليـد البيضـاء وهـي تمتـد، أصابعهـا بتـلات أزهـار تخـرج مـن رحـم الظلمـة فيشـعّ النـور، كل شيء يبـدو حقيقيًـا، أرى وأشـمّ وأسـمع وألمـس وأتـذوّق حـلاوة شـهد اللحظـة، وكي أقطـع الشـكّ باليقـين مـددتُ يـدي محـاولاً سـجن ثوبهـا عـلّي أثبـتُ لي ولهـا أنّ الأمـر واقـع وحقيقـة لا سـبيل إلى نكرانهـما، لم تمهلنـي لأعـرف، انسـحبت بحركـة مفاجئـة، طـارت كـما تطـير راقصـة باليـه وهـي تهمـس:

- الخيال الخصب لا يستحقّ صاحبه إلا رشوة.

- وما تلك؟

أضافت غير حافلة بسؤالي:

- أو عـلى الأرجـح مـا سـتعتقده رشـوة، ولكنهـا في الحقيقة مكسب لي.

قلتُ بتصميم:

- سيحفّزني ذلك أكثر، لنرَ..

- أريـد أن أغفـو في حضنـك، لـن أدعـك تنـام وحيـدًا بعـد الليلة.

بـدتْ بعيـدة، وبقـدر المفاجـأة كانـت ردّة الفعـل، الهدوء الـذي يسـبق العاصفـة، الصمـت العاجـز الـذي يمنـح الحيـاة لأقـل نأمـة، فظيـعٌ صريـر النافـذة وهـي تتلـكّأ في سـيرها نحـو الجـدار..

- استلق ومد ذراعك لأغفو قليلاً..

اسـتلقيتُ في نـداء الغيبوبـة، عضّتنـي الحاجـة في ظـلام نفـسي، فأدركـت بخـبرة الأنثـى مـا أريـد:

- الجو بارد وعاصف..

كانـت تلـك إشـارتها لأبـدأ، إلاّ أنّ مقبـض النافـذة كان قـد انتهـى إلى ارتطامـه بالجـدار في صفعـة مدوّيـة أفسـدت كل شيء.

الحلم 19

رأيت فيما يرى النائم...

لسـانه يتـدلّى، فيمـلأ سـمعي باللهـاث، الوجـه كبـير كوجـه ثـور البيسـون، مـن العجيـب أنـه بـلا قرنـين، اللهـاث دلالـة عـلى جـري متّصـل، بإمكانـه الآن وقـد توقّفت السـيّدة لبعـض الراحـة عـلى مقعـد في الحديقـة أن يسـتردّ أنفاسـه، يسـتطيع أن يقعـى، مـع الوقـت يتراجـع تعبـه رويـدًا رويـدًا إلى أن يتوقّـف بطنـه الضامـر عـن هـذا الاهتـزاز بين الشـهيق والزفـير..

بـدا منهـكًا، لـن يخفـى ذلـك عـن العـين الرحيمـة، التفـتَ إلى السـيّدة، كانـت منشـغلة عنـه بقـراءة مجلّـة، طـرف السلسـلة منتـهٍ إلى يدهـا، تلفّـه لفّـة خفيفـة بـين أصابعهـا، مجـرّد إيحـاء بـأنّ رقبتـه في سـجنها، عينـاه تعكسـان طاعـة عميـاء، فتـيّ بمـا يكفـي للاندفـاع، لكنـه لا يهـرب يظـل لصيقًـا بطـرف ثوبهـا فيـما هـي منشـغلة عنـه،

نــادرًا مــا تنتبــه إلى وجــوده، لا يحــدثُ ذلــك إلاّ بنباحــه، ونباحــه يأخذهــا إلى النظــر نحــو البعيــد، تفتّــش بعينــين مطمئنتــين عــن مصــدر اســتيائه، ثــم تعــود إلى نفســها، لم يحــدث أن ســألته يومًــا: مــا الــذي يربــكَك؟ حتــى في الليــل حــين تخفــتُ الأضــواء وتهــدأ حركــة النّــاس ويعــمّ الصمــت، فهــي لا تعنــى بنباحــه ولا تهتــمّ لأمــر قتالــه مــع السلســلة الحديديــة، مــن عــادة أصحــاب الــكلاب وأنــا أعــرفُ بعضهــم أن يجيبــوا كلابهــم إذا نبحــوا، أنــا نفــسي كنــتُ أجيــب كلبــي "مايــك" إذا نبــح..

تغــرس رأســها في المجلّــة، عيناهــا تمضغــان الأحــرف والصــور، أحدهــم كان معــي لم أتبــيّن عــلى وجــه اليقــين مــن هــو، قــال ســاخرًا - وهــذا مــا عرّفنــي إلى حضــوره -:

- هذا الصنف من النساء لا يقرأ.

- ولكنها تقلّب صفحات المجلّة منذ أن جلست.

-تتفرّج على آخر ابتكارات الموضة.

تســاءلتُ في سرّي: ابــن الملعونــة كيــف عــرفَ؟ واصــل هــو:

- ستحتار من معرفتي هذه رغم جهلي بالسيّدة.

قلتُ:

- نعم هذا صحيح.

- الأمـر في غايـة البسـاطة، مـا يحصـل لذلـك الكلـب حصـل معـي كثـيرًا.. أنـتَ نفسـك مـررتَ بي أو مـررتُ بـك، لا أذكـر جيّـدا، لكـن أحدنـا كان واقفًـا أو جالسًـا، ومـرّ أحدنـا بالآخـر..

- هل سحبتك السيّدة بسلسلة؟!

- يووووه لستُ الوحيد.

- أتعني أنك......

- قُلْهَا.. لا تخف..

- كلب.

وكي يثبـت صحّـة كلامـي رفـع نباحـه عاليًـا، انتبهـت السـيّدة إلى أصابعها الفارغـة مـن السلسـلة، تأفّفـت، طـوت المجلّـة، ثـم حملـت حقيبـة يدهـا وغـادرت..

في إثرهـا جـرى.. بلسـان يتـدلّى ولهـاث سـدّ عـين الليـل..

الحلم 20

رأيت فيما يرى النائم...

أننـي أرتقـي سـلالم نفـق معتـم درجـة درجـة حتـى أنتهـي إلى رصيـف محطّـة، في يـدي حقيبـة وفي قلبـي مضغـة أحـلام، لم تدهشـني الجمـوع الغفـيرة التـي اصطفّـت عـلى جانبـيّ الرصيـف في انتظـار القطـار، قـال صـوت:

- سيسع الجميع فلا تقلقوا..

لا يبـدو عـلى وجوههـم القلـق، وأوحـت حقائبهـم بسـفر طويـل، تشـاغلتُ عنهـم بتقليـب صفحـات كتـاب قديـم، لغتـه غريبـة وخطّـه يشـبه خطـوط كتبـة التعاويـذ والتمائـم إلى أن عـلا صفـير ينـذر ببدايـة الرحلـة، صعـدتُ مـع غـيري إلى جـوف القطـار، والتذكـرة في يـدي لاسـتظهارها وقـت الحاجـة، أشـار رجـلٌ نحـو كـرسيّ ملاصـق للنّافـذة:

- مكانك هنا.

أحسســتُ بخفّــة الحمــل، الكتــاب أثقــل مــن أن أفتحــه مــن جديــد، مــن حقيبتــي أخرجــتُ قطــاري الصغــير، رحــتُ أسـوقه في الهـواء، وبفمـي أولّـدُ لـه أزيـز موتـوره وصفـيره العــالي.

انشــغل الــرّكاب كلٌّ بحاجتــه والقطــار يقطــع التــلال والجبـال والأوديـة والفصـول، محطّاتـه كثـيرة والنـزول والصعـود منـه وإليـه بالـكاد نلحظـه، تتغـيّر وجـوه الـركاب مـن دون أن يثـير ذلـك فينـا أدنى تسـاؤل، ولكـن السـيّدة التـي تقاسـمني كـرسي الرحلـة تسـأل:

- ألا ينزل أحدهم من قطارِكَ هذا؟

صحــوتُ مــن ســكرة اللعــب عــلى صوتهــا، تحمّســتُ لفهـم مـا يـدور داخـل القطـار، ألقيـتُ نظـرة متفحّصـة مـن ثقــوب نوافــذه عــلى الداخــل:

- القطار فارغ.

قالت بصوت الواثق:

- ولكننا نشغله.

عــدتُ أبحــثُ عــن نفــسي داخلــه، أوقفــتُ عجلاتــه الحديديــة عــلى ســطح الحقيبــة، مــن ثقــوب نوافــذه لا يــشي

الداخـل بحركـة حيـاة، ولاحظـت حـيرتي فهمسـت بحنـان:

- هذه محطّة نزولك.

- لكنني لستُ داخل القطار.

- أنت فقط لا ترى نفسك فيه، جرّب خروجك منه.

انتابنـي إحسـاسٌ بتفاهـة كل شيء، هـا أنـذا أنتهـي خفيفًا كـما بـدأت، متاعـي إلى جـوار السـيّدة، وأنـا أخـرجُ مـن قطـاري إلى أرضيـة القطـار الـذي توقّـف فجـأة عـلى رصيـف محطّـة أراهـا لأول مـرة.

الحلم 21

رأيت فيما يرى النائم...

الوجـه الناعـم وهـو يتحـوّل عـلى وهـن الضّـوء إلى شرّ مطلـق، اعتلتنـي في لحظـة مباغتـة، يـدٌ تكمّـم فمـي واليـد الأخـرى تشـهر سـكينًا حـادًا، رفسـتُ بقدمـيّ وصرخـتُ، فدفنـت الصرخـة في حلقـي، ومثـل سـمكة جرّدهـا الشـصّ مـن مـاء النهـر رحـتُ أميـل بـرأسي إلى جهـة تمنحنـي فرصـة الخـلاص مـن ضغـط يدهـا، تـسرّب إلى جسـدي إحسـاس بثقـل وزنهـا وقد زاد ضغطـه، اللحـم الحـيّ السـاخن ينطفـئ فجـأة ليصـير أطنانًـا مـن القـوة، عينـي عـلى نصـل السـكّين المتوهّـج وهـو يتحـرك في الهـواء، خمّنـتُ أنّ تسـديد الطعنـة يكـون إلى القلـب مبـاشرة، إنـه المـوت النظيـف، المـوت الـذي يليـق بجثّـة زوج، لقـد كانـت رقبتـي متاحـة، لم يكـن يسـدّ الطريـق نحوهـا غـير إيمانهـا بقتـل نبيـل تمنـح فيـه لهـا وللجثّـة شرف النهايـة.

هكـذا فهمـتُ، مـن الفـرص المواتيـة المسـتمرة التـي أتيحـتْ لهـا لنحـر رقبتـي وأنـا أتلفّـتُ في تخبّطـي، كان بإمكانهـا أن تفعـل وبسرعـة بـرق، تمـدّ رأس النصـل جهـة الأذن، ثـم تسـحب بضغـط يفجّـر الشريـان إلى أن تبلـغ الأذن الأخـرى، سـمعتُ مثـل هـذه الجملـة آلاف المـرّات.. الذبـح مـن الوريـد إلى الوريـد.

لكـن، كيـف صـار الأمـر إلى مـا هـو عليـه؟ بدأنـا كـما كنّـا نبـدأ في كل مـرة، لا شيء ينغّـص الصفـو، الضحـكات، الملاطفـات البريئـة، جسـدي يدفـع جسـدها، بـدلال تسـقط مثـل صفصافـة يوقعهـا العصـف، تسـحبُ سـاقًا وتمـدّ الأخـرى، تغـرسُ أصابعهـا في خصـلات شـعرها وتسـحب كأنهـا تصفّفـه، تهـزّ رأسـها وتضحـك، عضّـة حانيـة عـلى الشـفة السـفلى، غمـزة العـين اللوزيـة التـي يفجّرهـا سـحر الريميـل، إيمـاءة الكتـف التـي تدعو وتصـدّ في عـين اللحظـة، الأمـر بـدأ هكـذا، والموقـف الـذي سـبق مـا نحـن فيـه لم يكـن لينـذر بخطـر محـدق، ووجههـا المكلّـل بالحـبّ والرّغبـة مـا كنـتُ لأتوقّـع لـه هـذا التحـوّل الفاجـع، زوج وزوجـة يفترشـان الليـل ويلتحفـان بحاجتهـما، ثـم فجـأة ينقلـبُ كل شيء..

مـن أوحـى لي بفكـرة كـون العلاقـة زوجيـة؟ أنـا للحقيقـة أغـرق في حيـاة العزوبـة حتـى تلافيـف رأسي، ووالـدتي لا تتوقّـف

عـن التذمّـر مـن هـذه الحقيقـة، تقتنـص أوقـات سـكينتي ومـا أقلّهـا، ثـم تواجهنـي باسـتحالة اسـتمرار الوضـع هكـذا..

- لكنني بخير..

- يا وليدي غدوة تتخبّى عيني.

- الله يطوّل في عمرك ويعطيك الصحة.

الأمـر ليـس مثلـما أراه، هـذه المـرأة لا أعرفهـا ولم يسـبق لي أن رأيـتُ وجههـا قبـل اليـوم، أكّـدتُ ذلـك لنفـسي بجهـل اسـمها، لذلـك فقـد عـدتُ إلى الرفـس بقائمتـيّ كحيـوان وقـع في شَرَك، كيـف لم أنتبـه لنفـسي وأنـا أنحـدر في زقـاق المبغـى، أحمـل رغبتـي في نفـسي وثمنهـا في جيبـي..

وحـين ملـتُ انسـحبت أصابعهـا عـن فمـي، تنفّسـتُ بعمـق مـن يواجـه الهـواء بعـد طـول غـرق، وقلـتُ بصـوت يائـس:

- سأدفع.. سأدفع..

لم تنبـس بكلمـة واحـدة، باتـت تضغـط بـكل ثقلهـا، وعـادت فأحكمـت إغـلاق فمـي مـن جديـد، فهمسـتُ لنفـسي: إنّ مثـل هـذه الأوكار تتمتّـع بالحمايـة اللازمـة لهـؤلاء النسـوة، وفي الحـال رأيـتُ قـوّادًا يمـلأ بـاب الغرفـة، فصرخـتُ:

- امسك يدها.

لم يحرك ساكنًا، رمقني بنظرة ساخرة، ثم انسحب مخلّفًا وراءه ما يشبه سحابة صغيرة راحت تتكاثف وتتجمّع عند السقف، رحتُ أنقل بصري بينها وبين السكّين المشهور في يد المرأة وقد وقعا في نفس خط رؤيتي، وتساءلتُ بنفاد صبر: متى ينتهي النصل إلى قلبي فهو كل مرادها؟ وسمعتها تجيبني لأول مرة:

- إلى أنْ ألدكَ.

الحلم 22

رأيت فيما يرى النائم...

هدير جمـوع متدفّقـة، صيحاتهـم تملأ الفضـاء وأيديهـم ملوّحـة متوعّـدة، وأعناقهـم مشرئبّـة، ووجدتنـي أنـدسّ بينهـم حتـى لا تثبـت تهمـة خيانتـي في خروجـي عنهـم.

هل كانت ثورة؟

لا أعـرفُ عـلى وجـه الدقّـة مـا الـذي يحـدثُ، لم يتنبّـه أحــد إلى تســلّلي، أمــا مــا هــدّأ مــن روعــي فهــو أنّ هــذه الجمـوع تشـبه كـرة ثلـج منحـدرة مـن رأس جبـل، إنهـا تبـدأ صغـيرة ثـم تكـبر في طريقهـا نحـو سـفحه، لقـد كنـتُ نُدفـة ثلـج شـكّلتْ مـع آلافٍ مـن أخواتهـا هـذه الكـرة المندفعـة، وكي تكتمـل طمأنينتـي أكـثر رحـتُ أقلّـدُ هـذه المجاميـع في التلويـح بيـدي وترديـد كلماتهـم:

- يسقط... يسقط..

أحدهـم يعتمـرُ قبّعـة ويطلـق مـن فتحـة مؤخرتهـا خصلـة مـن شـعره، أشـار لنـا بيـده أن نتوقّـف، ثـم راح يعـدّ:

- ثلاثة... اثنان... واحد.. اكشن..

عـاد التدافـع مـن جديـد، تعـثّر بعضنـا ببعـض وأعيننـا شـاخصة إلى الرجـل تنتظـر إشـاراته التـي نسـير عـلى هديهـا، رأينـاه يشـيرُ لنـا بـأن نرفـع حـدّة أصواتنـا أكـثر.. يسـقط... يسـقط.. لا أعـرفُ لمـن نطلـب السّـقوط، ولكننـي خشـيتُ عـلى نفـسي مـن السـؤال:

- كيف تطلب سقوط رجل لا تعرفه؟!

- هذا عميل..

- لا حياة للخونة بيننا.

ثم قال آخر من وسط الجموع:

- سـوف يكـون هـذا الـكادر مـن أروع المشـاهد التـي صـوّرت في الفيلـم.

- عن أيّ شخصية تدور أحداثه؟

لطمنـي السـؤال في صمـت، بلعـتُ ريـق الهزيمـة، مـرة أخـرى تـردّد الصـوت بثقـل الرّصـاص.. يسـقط... يسـقط... رحتُ أسـتعرض العـشرات مـن وجـوه القـادة والزعـماء والديكتاتوريـين

الذيــن ماتــوا تحــت هديــر الجماهــير، أيكــون أحــد هــؤلاء الوجـوه هـو بطـل هـذا الفيلـم؟ وزمجـر صـوت عـلى مقربـة منّــي:

-الموت للخونة..

تحسّســتُ رقبتــي، متــى تثبــتُ خيانتــي بهــذا الجهــل الـصرف فأنـال العقـاب الـذي أسـتحقّه؟.. لا أحـد يهتـم لأمـرك، أنـت آحـاد النـاس لا تسـمن ولا تغنـي مـن جـوع، ومـا دام هـو رأس المشـكلة فـلا خـوف..

التفــتُّ أبحــثُ عــن الكامــيرات وفوانيــس الأضــواء العملاقــة كعــادة عمــل أهــل الســينما، كنــتُ أريــد أن أقنــع نفـسي بـأنّ الأمـر لا يعـدو كونـه حاجـة تصويـر لمجاميـع جاءوا بدافـع الفضـول، المصيبـة أنّ لا شيء يوحـي بذلـك، حتـى مـن تخيّلتـه مخـرج الفيلـم سرعـان مـا ألقـى مكـبّر الصـوت عـلى الأرض لرفـس الأقـدام وتسـلّق كقـرد عـلى أكتـاف المتظاهريـن..

ســوف تفتــح قــوات الشرطــة النّــار علينــا، فهــذا هــو العُـرف السـاري في مثـل هـذه الأحـداث، نتسـاقط كالذبـاب، يتدافـع النّـاس بهـرج ومـرج، تعلـو الصرخـات، يعـوي الرّصـاص، تنـزّ الدمـاء، يتفـرّق شـملنا كقطيـع داهمـه الخطـر.. تسـلّل إليّ صـوت بـاكٍ.. (الـرّوح عزيـزة) انكمشـتُ داخـل خـوفي متضرّعًـا

إلى اللـه أن تخطئنـي رصاصاتهـم، طفقـتُ أزحـف بمـا بقـي فيّ مـن جهـد نحـو جـدار صغـير، يسـتحيل عبـوره، إنّ محاولـة تسـوّره تعـرّض ظهـري لوابـل رصاصهـم، لا بـأس مـن أقـدام تدوسـني، لا بـأس أيضـا مـن منظـر عينـين تحملقـان في وجهـي بـكل وجـع الأرض..

- يسقط... يسقط...

الصـدّى كالصـوت، ينتـشر كالطحالـب المسـمومة، ثـم يسـتحيل إلى طنـين عاصـف، يتناسـل، جـراء كلبـة شـاردة، رائحـة دخّـان تهبـط فـوق عـواء غريـب، كنـتُ منكمشًـا في الجـدار، أعـضّ بالنواجـذ عـلى أمـل واهٍ، الرصـاص لا طريـق لـه إلا التيـه، رصاصـة طائشـة وينتهـي كل شيء، واخترقـتْ صـدري طلقـة صـوت:

- يسقط الخوف..

فنهضتُ من نومي...

الحلم 23

رأيت فيما يرى النائم...

أننـي أجلـس في مقهـى تعـوّدتُ الجلـوس عليـه منـذ أمـد بعيـد، لم يتغـيّر حالـه كثـيرًا وإنْ اختلـف رواده، طاولاته وكراسـيه بالوضعيـات عينهـا، النـادل الـذي رأيتـه في صغـري وهـو في عمـر الشـباب بقـي عـلى حالـه، يجـيء مثلـما كان يجيئنـي منـذ عشريـن عامـا، ويسـألني السـؤال الـذي لم يتغـيّر:

- عمّو.. قهوة؟

في أول الأمـر كنـتُ أحتـار لسـؤاله، كيـف لشـاب أن يدعـو مـن يصغـره سـنًا بـعمّو، ثـم مـع الوقـت رددتُ حـيرتي إلى كونـه يتمتّـع بـروح مفطـورة عـلى الظُّـرف والتفكّـه لا أكـثر، لكننـي عميقًـا في نفـسي.. أمهلـتُ الفكـرة للوقـت، سـنصير يومًـا إلى عمـر مـا، بيننـا فـارق سـنوات، لتكـن عـشرة أعـوام، حينهـا سـوف يتغـيّر الموقـف برمّتـه.. قلـتُ.

المشـكلة أنّ الشـاب لم يكـبر، رأيتنـي وأنـا في عمـره، ثـم

تجاوزتـه بأعـوام قليلـة، وعشـتُ إلى أن لمحـتُ جـلاء الفـرق بيننا في الهيئـة والهنـدام والوجـه والشـعر، ثمّـة مكـرٌ خفـيّ والأمـر يبـدو كالسـحر. صاحـب المقهـى تـوفّي منـذ أعـوام خلـت، ومـن لهـم معرفـة عميقـة ودرايـة راسـخة بـكل مـا يخـصّ المقهـى يجزمـون بـأنّ النـادل كان يكـبر المالـك بعـشرات السـنوات:

- عشر سنوات مثلا؟

يقول العارف:

- لا..لا.. حـين كان النـادل في عمـر شـبابه لم يكـن صاحـب المقهـى قـد ولـد بعـد.

- ثم؟

- ثــم ولــد المالــك وكــبر وورث المقهــى، ورأى أن يُبْقِــي عــلى النــادل الــذي كان يعمــل مــع والــده.

- أمر غريب.

- انتظر لتسمع الأغرب.

لجمتنـي الدهشـة حتـى قبـل أن أسـمع، سـوف ينجـلي الــسرّ وتنكشــف الحقيقــة كاملــة، وفي ســكرة الفضــول قطــع ســؤاله انســجامي:

- عمّو.. قهوة؟

تفرّسـتُ في وجهـه بضيـق، كنـتُ عـلى شـفا المعرفـة، لم يبـق بينـي وبـين سرّه غـير كلمـة واحـدة، والتفـتُّ أبحـثُ عـن محـدّثي فطالعنـي الكـرسيّ بفراغـه:

- أين ذهب الرجل؟

لم يهتـم لسـؤالي، اسـتدار ومـضى إلى الكونتـوار، وعـدتُ إلى نفـسي أفتّـش بيـأس عـن وجـه الغرابـة فيـه، ولكننـي أيقنـتُ بمـا لا يدعـو للشـكّ أنّ النـادل يملـك مـن القـوى الخارقـة مـا يجعلـه يطلّـع عـلى كل صغـيرة وكبـيرة، وأنّ سـؤاله لي عـن شرب قهـوة لا يعـدو أن يكـون حرصـه الدائـم عـلى تفويـت فـرص الجـواب أمـام أيّ تسـاؤل يخصّـه، ولربمـا كان في الأمـر تعويـذة سـحرية تبقيـه كـما هـو بـلا مـسّ مـن الزمـن وتزيـده فـوق ذلـك قـوة علـم بمـا يـدور حولـه مـن أقاويـل ومـا يجـري مـن أحـداث، وتملّكتنـي ريبـة مـن أنّ مـا يصطخـبُ في نفـسي مـن تسـاؤلات ربمـا واقـعٌ الآن تحـت بـصره، فقـوة البقـاء عـلى شـباب دائـم تسـتدعي قـوى أخـرى خفيّـة مجهولـة تتجـاوز فكـرة العمـر إلى مـا دونهـا مـن بـركات العلـم وإشـفاء المـرضى والتنبـؤ بالمسـتقبل، كل هـذا ممكـن الحـدوث مـع مثـل هـذا الرجـل، فهـو دائـم القـراءة لمـا يـدور في رؤوس زبائنـه، متفهّـمٌ لحاجاتهـم وأذواقهـم، وأمـا سـؤاله المتكـرّر الـذي حفظنـاه عـن ظهـر قلـب، والـذي لا يحيـد عنـه أبـدًا، فليـس سـوى طعمـه

الـذي يسـتعمله ليوهمنـي ويوهـم غـيري بأنـه يجهـل طلباتنـا، ومـن ثـمّ يجهـل كل شيء عنّـا..

هـذه حقيقـة وجـب أن أتنبّـه إليهـا منـذ أمـد طويـل، منــذ أن تعــوّدتُ الجلــوس في هــذا المقهــى دون غــيره مــن المقاهــي رغـم توفيرهـا خدمـات تتجـاوز خدمـات هـذا الرجـل بأضعـاف، وتقـع في أحسـن المواقـع التـي تطـلّ عـلى الخـضرة والهـدوء والعمـران البعيـد، مـا الـذي كان يسـوقني إلى هـذا المـكان غـير سـحر صاحبـه، وكيـف انصعـتُ لقتـل كل تلـك السـنوات هنـا بـين يديـه غـير قوتـه الغيبيـة التـي تتحـدّى حاجـة العقـول وسـعي الأقـدام ورغبـة النفـوس، ومـا الحيلـة الآن للخـلاص مـن رجـل لا يـبرح رأسي، مطّلعًـا عـلى كل شـاردة وواردة في تفكـيري، منصتًـا لـكل نأمـة في روحـي، كاشـفًا عـن كل خلجـة مـن خلجـات نفـسي؟ ووجـدتُ نفـسي أخـوف مـن أن تتفـوّه لنفـسي:

- مثل هذا الرجل جزاؤه القتل.

- القتل؟!

- نعم القتل ولا شيء غيره.

وقهقــه محــدّثي إلى جــواري، بعــد أن عــاد بطريقــة لم أفهمهــا، وهمــس:

- لكنـه صاحـب شـباب دائـم، ومثلـه لا يمـوت بالسـهولة التـي تتخيّلهـا.

- كيف سمعتني؟

- لستُ الوحيد الذي سمع حديث نفسك.

وأومأتُ برأسي أستفسر، فأكّد صحّة تخميني قائلا:

- نعم هو أيضا عرف ما سوف تقدم على فعله.

- هي نيّة لا أكثر.

- هــو يعــرف أنهــا نيّــة لا أكــثر، ولــن تلقــى منــه مــا يســوؤك..

وسألتُ بشيء من الخوف:

- ألا يتربّص لي؟

- إنْ تربّصتَ له.

بقــي عــلى شــباب دائــم، يســأل الســؤال ذاتــه الــذي ينتهـي إلى الطلـب عينـه، وكنـتُ أمنّـي النفـس بقتلـه، مجـرّد أمنيــة تجــري إلى الخاطــر كلــما لاح لي إحســاسٌ بانهماكــه في تلبيـة طلبـات الزبائـن، ومـع الوقـت خلصـتُ إلى تجسـيد روح النيّـة بتنفيـذ فعـل القتـل حتـى لـو سـبق هـو إلى قتـلي، مـن

المعقـول أن يمـوت أحدنـا ليخلّـص الآخـر، ووجـدتُ نفـسي مـن جديـد في المقهـى، أخفـي السـكّين في جيبـي وهـو يقـتربُ منـي عـلى مهـل...

الحلم 24

رأيت فيما يرى النائم...

أنني جالس في حجرة معتمة، ينوء جوّها برطوبة صيف ثقيل، ويدفع صمتها المترامي الملل إلى النفس، فكّرتُ في فتح النوافذ لأنعم ببعض الضوء، ثم ولسبب مجهول أجلّتُ قراري إلى وقت لاحق، فقد كانت الأوراق التي بين يديّ هي كل ما يسيّطر على تفكيري في تلك اللحظة.

الأمر الغريب أنني لا أعرف أهميتها بالضبط، لكن بدا من أشكالها وأختامها وتواقيعها أنها أوراق يتوقّف عليها المصير والحياة، هناك أمر آخر لا يعرفه غيري، مشكلة احتفظتُ بها لنفسي وتعايشتُ معها بما ملكتُ من عناد في طينة طبعي، وهو أنّ بصري ضَعُفَ خلال سنواتي الأخيرة، وربما كان هذا أحد أهم الأسباب التي صرفتني عن القراءة، وهو الأمر الذي عُرِفْتُ به بين أهلي وزملاء العمل، ولأكون صريحًا مع نفسي أكثر، فمدخولي المالي لا يقف حائلا أمام

زيـارة طبيـب عيـون ينتهـي فحصـه غالبًـا بنظّـارة طبيّـة، مـع الوقـت عـزوتُ ذلـك الرفـض إلى كفـرٍ داخـلي بمسـألة العمـر والكـبر وارتباطهـما الوثيـق بضعـف البـصر.. نعـم... هـذا هـو.. كنـتُ أرى في النظـارة الطبيّـة صفعـة مدوّيـة تحـرك كل عصـب في وعيـي:

- لقد كبرتَ..

أجاهـد بمـا ملكـتُ مـن حيلـة وقـوة بالضغـط عـلى عضـلات العينـين، أبعـد الأوراق وأقرّبهـا عـلى خـط مسـافة عـلّي أتعـثّر في نقطـة مـا منـه عـلى جـلاء رؤيـة، استنجد بالضـوء الباهـر الطبيعـي بـدل أضـواء اللمبـات الواقعـة في المكاتـب والغـرف المغلقـة التـي لا تفـي بالحاجـة..

هـذا كلـه لغـو في مواجهـة العتمـة داخـل حجـرة رطبـة خاليـة مـن الأثـاث والنوافـذ، والبـاب الوحيـد يـؤدي إلى دهليـز لا أعـرف إلى أيـن ينتهـي، والأوراق مهمّـة وفائقـة الخطـورة، وجهـة رسـمية لا أتبـيّن مـن تكـون عـلى وجـه التحديـد هـي التـي ألحّـت في طلـب هـذه الورقـة:

- الملف ناقص بحكم عدم توفّر هذه الشهادة.

- فتّشتُ كثيراً.

وقالت موظفة حسناء من وراء مكتبها:

- هذا إهمال.

أحسستُ كأنّ أحدهم يلقي بي في جبّ بلا قرار.

- هذه كل أوراقي الثبوتية وشهاداتي منذ ولدتُ.

وعاد الرجل يقول وهو منهمك في فرز الأوراق:

- ضيّعتها.. يا أخي ضيّعتَ أهم شيء...

وامتد صوت الموظفة من جديد كطوق نجاة:

- فتّشْ أكثر.. ربما وضعتها في درج ما ونسيتَ..

يـا لآفـة النسـيان وهـي تمتـزج بالعتمـة وضعـف البـصر، وأيّ الأدراج أفتّـشُ وخزائـن الذاكـرة منهوبـة الأقفـال؟.. هـذه هـي الأوراق الثبوتيـة، عقـد إيجـار البيـت، وصـولات الكهربـاء والمـاء والهاتـف، شـهادات العمـل والعطـل المرضيـة، العطـل السـنوية، رزمـة أوراق كبـيرة سـوف تحـار النـار في أكلهـا، لكنهـم يقولـون:

- هذه الشهادة بالذات تتوقّف عليها حياتك...

-ألا يمكن أن يكتمل الملف دونها؟

- يستحيل.

ثـم أومـأ لي أن أنتظـر دوري في الطابـور الطويل، سـمعته

يقـول أيضا:

- حـين تظهـر أعـراض المـرض والشـيخوخة يسـهل الحصول على هـذه الشـهادة.

في الحجـرة المعتمـة، ينـوء الجـو برطوبـة صيـف ثقيـل، ويدفـع الصمـت المترامـي السـكينة إلى النفـس، فكّـرتُ في غلـق كل المنافـذ التـي يمكـن للضـوء أن يتسـلّل منهـا، وشـيئا فشـيئا رحـتُ أغـرق في ظلمـة تشـبه اليقـين.

الحلم 25

رأيت فيما يرى النّائم...

نقطـة ظـلّ عـلى الأرض، بـدت أول الأمـر عـلى هيئـة نملـة ضاعـت عـن سربهـا، هـزّني صوتـه مـن سـهوي:

- سوف تسحقها قدم عابر..

الأمـر المحـيّر أنّ النقطـة اتسـعت، تمـدّدت حوافّهـا، ففاضـت عـن حـدود احتمالنـا الأول. لا علاقـة للنقطـة بالنمـل، وأكّـد عـلى مـا في رأسي بقولـه:

- صارت بحجم بقعة.

البقعـة كـبرت، أكلـت ضـوء الأرض، ابتلعـت الـتراب الـذي نقـف عليـه، غطّتنـا، البقعـة مظلّـة غطّـت عـين الشـمس، رفعنـا البـصر حيـث أصـل الظـل، فـتراءى الجنـاح الكبـير، أكـبر مـمّا قـدّر لنـا أن نـرى قبـل اليـوم، ألوانـه الزاهيـة بديعـة الترتيـب، دفيفـه يسـقط في أذني بارتطـام هائـل يرتـجّ لـه الجبـل، ضرباتـه

سلسـة في حركتهـا وهـي ترفـع الجسـم المخروطـي إلى أعـلى، ظلّـل عينيـه براحـة يـده، وهمـس:

- فراشة.. كل هذه فراشة!

ثمّـل الفضـاء بلونهـا القزحـي، أسرتنـا بطيرانهـا المترنّـح، وكلـما ابتعـدت انكشـف الأفـق وترامـت الأرض أمـام أعيننـا، وبلسـان ألجمـه الخـوف قـال:

- لا شجر، لا حجر، ولا بشر..

- الفراشة لا تخيف إلى هذا الحدّ.

قلـتُ ذلـك لأهـوّن الأمـر في عينيـه، رغـم دبيـب الخـوف الـذي تفـشّى في روحـي وأنـا أرى أثـر الرمـاد الـذي خلّفتـه، في خطـوط طيرانهـا النـار التـي سرعـان مـا تنكفـئ على سـواد فاحم، لم أصارحـه بمـا يمـور في قلبـي، ربـاه مـن يصـدّق أنّ الوداعـة تنقلـب في طرفـة عـين إلى مثـل هـذه الوحشـية، ثـم خمّنـتُ أنّ كائنًـا يهيـم بالنـار ويحيـا بحـرق جسـمه حتـى آخـر الرمـق، لهـو كائـن خطـير:

- الفراشة؟!

- نعم الفراشة..

بـدت تتقلّـبُ في طيرانهـا باهتـزازات غريبـة، كأنّ بهـا

مـسّ مـن الشـيطان، لا يمكـن فهـم مـا يحصـل:

- الفراشة وديعة وآمنة..

أكثرهـم يـرى أنهـا لا تظهـر إلا في فصـل الربيـع، تـدل عليـه وتمنحـه مـن ألوانهـا الزاهيـة البديعـة روح لونـه، ثـم مـا لبـث أن اشـتعل الهديـر مـن جديـد، تكاثـر الدفيـف، واسـتولت عـلى الفضـاء بأحجامهـا المتفاوتـة وألوانهـا المتباينـة، قـرون استشـعارها كقـرون شـياطين، أفواههـا متّسـعة، أرجلهـا مشـعّرة، عـشرات الآلاف منهـا تلتهـم كل شيء وتحـرق الأخـضر اليابـس..

أمـام نـشرات الأخبـار طمعنـا في الحقيقـة، تتضـارب الأقـوال، قـد ترجمنـا بنارهـا قبـل أن نعـرف، لكـن إيمـان النـاس بهـا كحقيقـة يبلـغ حـدّ التقديـس:

- هـذه الفراشـات اخترعتهـا يـدٌ بشريـة، أحدهـم نصـب لنـا الكمـين القاتـل..

والتـفّ حـولي النـاس، في أيديهـم الطـوب والحجـارة والعـصي، وفي أعينهـم قتـلي، وفي لحظـة يـأس رأيتنـي نقطـة ظـلّ عـلى الأرض، نملـة تاهـت عـن سربهـا، والأقـدام، آلاف الأقـدام مرفوعـة لسـحقي.

الحلم 26

رأيتُ فيما يرى النّائم...

أننـي أدفـع ثقـل ألـواح إلى أعـلى، مـن شـقوقها انهـال الـتراب بصـورة مـاء. الفكـرة موجعـة إلى حـدّ الخـوف إلا أنّ الحرّيـة التـي تقـع إثـر المحاولـة تهـوّن الأمـر، دفعـة أخـرى تنغـرس فيهـا اليـد في قلـب الـتراب، ثـم ينكشـف الضـوء والهـواء، آن أوان الزحـف، كـدودة رحـتُ أخلّـف أثـري عـلى الأرض الطريّـة.. الحفـرة مليئـة بالنـدم، شـقّ بقيـاس شـبر تحفّـه السـكينة وينطـوي عـلى أسراره الكاملـة..

لسـتُ أدري إنْ كان الليـل قـدر مصادفـة أو حالـة ترتيـب تتـواءم وضرورة الخـروج، الأمـر لا يهـم بقـدر أهميـة حـدوث معجـزة، إذ لم يسـبق أن خـرج أحدهـم مـن قـبره ليحيـا حيـاة أخـرى، عـليّ أولا أن أتخلّـص مـن هـذا الكفـن تحـت جنـح الظـلام، إنهـا الفرصـة المقـدّرة التـي تحجـب عـن الأعـين رؤيـة هـذه الهبـة الإلهيـة وهـي تبعـث حيـاة ميّـت مـن جديـد،

سـكرات الفرحـة تسـبقني إلى السـياج الـذي يتـوكأ عـلى أوتـاد خشـبية، فرصـة أخـرى تُطْـوَى فيهـا الذنـوب وتُغْسَـلُ الـشرور والآثـام بميـاه الخـير الطاهـرة.

بفرحـة طفـل تخطيّـتُ السـياج، وطمعـتُ كـما تطمـع كل نفـس صغـيرة في رؤيـة مـا تركـت خلفهـا:

- هذا أول الخطأ..

تـردّد الصـدى في جنبـات المقـبرة وأنـا أتطلّـع إلى السـكينة بعينـين منتصرتـين، أعـرفُ أنـه الفضـول، حاجـة الطمـع المتأصلـة في كل فـانٍ، تذكّـرتُ المعصيـة الأولى، لا.. لا زجـر عـن الالتفـات، ولكـن الزهـو الـذي تربّـص بي أفقـدني حـسّ النقـاء، هـا أنـذا أنقلـب إلى شـيطان مـن جديـد حتـى قبـل أن أبـرح فضـاء المقـبرة.. أسـتغفر اللـه العظيـم مـن كل ذنـب عظيـم وأتـوب إليـه، وتدافعـت إلى روحـي أصـوات هـادرة:

- كل ما ينقصك من حسنات بإمكانك أن تحصّله الآن..

في آخـر الطريـق التـي تنتهـي عندهـا المقـبرة ترقـد درّاجة هوائيـة، كـما ولدتنـي أمـي مشـيتُ، يسـتحيل قيـادة درّاجـة بعريـي هـذا، أوقفتهـا ودفعتهـا متخـيّرًا طريقـي وسـط العتمـة:

- يسوق درّاجة كما ولدته أمه..

- اللعنة عليكم.

بعض الأتربة عالقة بي كبصمة موت، والحياة نعمة في يد سخيّة جبّارة قادرة، وتساءلتُ بخوف:

- كم من الوقت سوف أبقى؟

أعرف أنني أخسر رهانات الأجوبة دائما، كما أعرف طينة نفسي الخبيثة التي تنجذب أمام كل لذة كانجذاب الفراش إلى فتيل النار، تبيتُ البارات مشرعة الأبواب إلى ساعة متأخرة من الليل، تُبْقِي المرأة نافذة حجرتها مواربة في غياب زوجها، فيلوح ضوءٌ ساهرٌ يرشد خطوي إلى اليقظة.

الحلم 27

رأيت فيما يرى النّائم...

السـقّود يقـتربُ مـن عينـي، تشـدّ عليـه أيـدٍ غليظـة مشـعرة، وتلـوح مـن وراء قبضتـه أعـين يتطايـر منهـا الـشرر. لا نجـاة لي مـن بـين أيديهـم، وإن حـدث الأمـر فهـو مجـرّد خـارق مـن الخـوارق التـي انقضـت مـن عـلى وجـه الأرض.

تزحزحــتُ قليـلا لأتفـادى فقـأ عينــي، غـير أنّ ثقـل جسـمي بـدت خيانتـه واضحـة أمـام سرعـة حركتهـم ودقّـة تنظيمهـم المحكـم، نسـيتُ أن أسرّ لنفـسي بحقيقتـي، فأنـا حوتٌ ضخـمٌ، وآلاف الأطنـان التـي تعـوّدت عـلى حيـاة المـاء يسـتحيل أن تصمـد لحظـة واحـدة عـلى اليابسـة أمـام لمعـان هـذه الحـراب، بإمكانهـم أن يفعلـوا، والآن.. لكـن لأسـباب مجهولـة المعرفـة بـدا أنهـم يؤخـرون سـاعة مـوتي مـا اسـتطاعوا، كانـوا يشـهرون أدوات قتلهـم ويطلقـون حناجرهـم بحمـم الـصراخ، قـال أحدهـم بنكايـة في لحظـة نـسي فيهـا نفسـه وهـو يقـف

عـلى مقربـة مـن أذني:

- هَرِمَ الحصان.

عليهــم قتلــه ليتخلّــص مــن ألم العجــز الــذي يعانيــه، الصراحـة تقتـضي أيضـا قـول كل شيء دفعـة واحـدة، فالأمـراض مجتمعــة بــدأت تنهــش لحمــي كقطيــع كلاب برّيــة قبــل إحالتـي عـلى المعـاش بأشـهر، الضغـط والسـكّري ودوالي السـاقين والتهـاب المثانـة..

لا يهـمّ إن كنـتُ حوتًـا أو حصانًـا، المهـم أن أتخلّـص مـن أيـدي الرجـال، النجـاة هـي كل مـا يتـوق إليـه مـن يقـع في مثـل ورطتـي حيـث يسـقط فريسـة لثقـل وزنـه وآلام أمراضـه ويـأس عجـزه، رغـم ذلـك كنـتُ أزحـفُ ببـطء، أدفـع بسـاقيّ ثقـل جذعـي إلى الـوراء منتظـرًا لحظـة فـرج مجهولـة، حالـة سـحرية تنقلنـي مـمّا أنـا فيـه إلى وضـع جديـد، معجـزة لا تتكرّر تحملنــي مــن جحيــم عذابهــم إلى جنّــة ســلامي، مـع الوقـت تخيّلـتُ أنّ الفكـرة قـد تحـدثُ في رنـين موبايـل مثـلا، اتصـال مـا يغـيّر مجـرى حيـاتي، طمعـتُ في ذلـك وتمنيتـه وحلمـتُ بـه. الخـبر الـذي لا يجـب تجاهلـه أيضـا، هـو أنّ موبايـلي قـد توقّـف عـن الرنـين بمجـرّد أن غـادرتُ مصلحـة العمـل، حـدث الأمــر منــذ شــهور خلــت، منــذ ســقوط حاجتهــم إليّ، لم أكــن أتوقّـع هـذا الصمـت المطبـق الـذي منيـتُ بـه، تُرِكـتُ للفـراغ،

وحرصـت زوجتـي عـلى وضـع مخطّـط جديـد لحياتنـا:

- النوم.. عليك بالنوم..

الحيـاة بـدت بـلا جـدوى، ومثل زائـدة دودية في جسـم لا يكـدّر عملـه غيابهـا تمثّلـت لي نفـسي، رنـين المنبّـه الصباحـي بـلا معنـى، تأخّـر أو إبـكار بـاص العمـل في الحضـور ليـس مشـكلتي، وشـيئا فشـيئا تراجعـت سـلطة كلمتـي، ووجـدتُ أصغـر الأبنـاء يمنحنـي لعبـة مسـدّس يطلـق المـاء بـدل الرصـاص:

- حتى لا تؤذي نفسك.. قال

لنفـــسي قلـــتُ: إنّ الكلمـــة فقـــدت ســـلطتها وســـطوتها فعليًـــا، الكلمـــة كالرصاصـــة تمنـــح الحيـــاة والمـــوت، الآن هامـــش مـــاء، لا شيء غـــير لعبـــة في يـــدي، أتأخّـــر كثـــيرًا في فـــراشي رغـــم أنّ يـــد اليقظـــة تمسّـــني باكـــرًا، أضغـــط زر التلفيزيـــون، ناشـــيونال جيواغـــرفي ورأس القطيـــع في زمـــرة الأســـود يُطْـــرَدُ شرّ طـــردة، أصـــوّب مســـدّسي المـــائي نحـــو الشاشـــة، أهـــدّد بإطـــلاق النـــار عليـــه في حـــال عـــدم عودتـــه إلى قطيعـــه:

- لا تستسلم..

عـــلى الســـافانا يمـــشي، أشـــدّه بسلســـلة ذهبيـــة ثقيلـــة مـــن عنقـــه، كأنّنـــا نبحـــثُ عـــن مـــاء، الينابيـــع جافّـــة، والعطش يشـــتعل، فكّـــرتُ في مـــاء مســـدّسي لعلّـــه يحـــلّ المشـــكلة، كل شيء يمـــوت

بفعـل الرمضـاء إلا هـؤلاء الرجـال الذيـن يتدافعـون كالشـياطين، يشـهرون حرابهـم، السـفّود يقـتربُ مـن عينـي، تشـدّ عليـه أيـدٍ غليظـة مشـعرة، وتلـوح مـن وراء قبضتـه أعـين يتطايـر منهـا الـشرر، وعينـي تستسـلم ليقظـة شـعاع شـمس تمّـوز الـذي اخـترق النافـذة.

الحلم 28

رأيتُ فيما يرى النّائم...

الظل يُسْفَحُ على أرض الغرفة، تشكّل أول الأمر بهيئة فزّاعة، التقطتُ خوفي لأدرأ به الخطر عن نفسي، يجب أن أبتعد ما أمكن لجناحيّ أن تخفقا، تقلّبتُ في الهواء، ارتفعتُ حتى اختلطتُ بأدخنة سحب بيضاء، تراءت حجرتي من هذا العلو الشاهق دون سقف كما رأيتني على سريري أغطّ في نوم عميق والظل ينام إلى جواري فوق بلاط الغرفة.

- استيقظ.. يجب أن تستيقظ...

تململ الظل، فخسر شكل الصليب الذي ارتبط طويلا بهيئة الفزّاعات، بدا شكل امرأة، وشى ضوء الخارج بشعرها الطويل وجسدها المثير، لكنني مستغرقٌ في نومي، متّصلٌ بحالة من الغياب اللذيذ الذي ينفي ما عداه، لا أرى أكثر من اللاشيء، الفراغ المجرّد العاري، رغم أنّ المرأة بدأت تتحرك، اهتزّ شعرها وتبدّى منها ثدي وهي تغيّر

مـن وضعيـة وقفتهـا عـلى البـاب، والبـاب أراه متاخـما للـرواق المضـاء بلمبـة صغـيرة واهيـة.

- يجب أن تستيقظ..

هـو لم يـر الأشـياء كـما أراهـا، تركتـه كـما هـو وهربـتُ بخـوفي منـذ أن أدركـتُ أنّ الفزّاعـة قـد نُصِبَـتْ في غرفتـي، كيـف لم ينتبـه كـما انتبهـتُ؟ ولم لم يقـدّر الخطـر الـذي قدّرتـه؟ كلانـا يعـرف أنّ الفزّاعـة تحمـل الخـوف حتـى لـو أتقـن صاحبهـا صنعهـا وجـوّد بنـاء هيكلهـا وشـكّلها بصـورة امـرأة بديعـة التكويـن.

- زمان كانوا يصنعون الفزّاعات بوسائل بدائية.

قال لي:

- أعرف.

- اليوم تغيّر كل شيء بإمكانهم خداعنا.

ضحك في عزّ نومه ساخرًا:

- أتخاف الظل؟

الحمـد للـه... أخـيرًا انتبـه، هـو يـدرك مـا الـذي يـدور حولـه، يـرى الظـل، يعـرف معنـى الفزّاعـة، يفهـم كل شي. لكنـه يظـل يبتسـم، في شـفتيه تعلـق رغبـة وفي يديـه تتعـثّر حاجاتـه،

والظـل يتحـرك أكـثر مـن أيّ وقـت مـضى، سـار بتـؤدة نحـو الجـدار، كأنهـا امـرأة عاريـة، عاريـة تمامًـا، انقسـم جسـمها بـين الحائـط والبـلاط...

- احذر...

قلتُ بروع ونفاد صبر، فصرخ في وجهي:

- ألا تكفّ؟

- أنا خائف.

- لا داعي لكل هذا القلق.

وأشـاح عنّـي بوجهـه، غـرق في حاجاتـه مـن جديـد، عـادت إلى شـفتيه رغبتـه الأولى، وبـرح سريـره متلمّسًـا طريقـه عـلى هـدي النـور الخافـت المتـسرّب مـن الصالـة، كان الظـل قـد عـاد إلى هيئـة فزّاعـة ملتصقًـا هـذه المـرة بالجـدار أشـدّ الالتصـاق، بإمـكاني الآن رؤيـة الجسـم وهـو يختلـط بظلّـه، وقبـل أن يرتـد إليّ الوعـي أشـار نحـوي قائـلا:

- انظر.. فيم خوفك؟ هو مانيكان لا أكثر..

مانيـكان يمـشي دون قـوة خارجيـة تلهمـه كل هـذه الحركـة، عجبـتُ للفكـرة، فبيتـي ليـس محـلا لبيـع الألبسـة، لم يخطـر ببـالي يومـا أن أقـف مثـل هـذا الموقـف، ثـم..

- ثم إنك تحلم..

- أيّنا يحلم أنا أم أنتَ؟..

- أقربنا إلى الأرض.

لم أكـن قريبـا مـن الأرض إلى حـد يتيـح لي رؤيـة الحقيقة كاملـة، فزّاعـة أم مانكيـان، في النهايـة رأيـتُ حياتنـا تعلـق عـلى مـا نختلقـه مـن أوهـام وظـلال، المـأكل الـذي نتقاتـل عليـه مـع الطيـور بهـذه الفزّاعـة، الملبـس الـذي نتوهـم بـه الجـمال بتلـك المانيـكان، يـا للخديعـة الكـبرى التـي تنهـض عليهـا حياتنـا، ثـم أحسســته يتحـرّج مــن رقابتــي وهــو يهــمّ بالظــل، فأشــحتُ وجهـي عنـه نحـو سرب عصافـير طـار هاربًـا مخلّفًـا في فوضـاه تلـك، قطـع ملابـس أنثويـة راحـت تتسـاقط عـلى الأرض الواحدة تلـو الأخـرى.

الحلم 29

رأيتُ فيما يرى النّائم...

اليـد تلـوّح مـن وراء زجـاج السـيارة، بـدت حركتهـا مختلطـة بضـوء أبيـض يندفـع مـن الخـارج، ومـن إشـارة الرجـل أدركـتُ قولـه:

- افتح النافذة..

هـو لم يقلهـا وأنـا لم أسـمعها، كانت إشـارته كافية لأسـتدل بهـا عـلى الطلـب، غـير أن إصابتـي في منبـت كتفـي اليمنـى حرمتنـي الحركـة، اختلـط دمـي بآلامـي بنظـرتي المشـتّتة، ومـن قلـب الصدمـة رأيـتُ حركـة شـفتيه المتصلـة مـن دون أن أسـمع حرفًـا واحـدًا، المشـكلة ليسـت في عـازل الزجـاج الـذي يفصـل بيننـا، فكميـة الطلقـات المنهمـرة كالمطـر عـلى كثرتهـا وسرعتهـا هـي التـي خلّفـت في أذني هـذا الصـدى المشـبع بالطنـين كـما خلّفـت في أنفـي رائحـة احـتراق غريـب.

رأيتــه وهــو يــدور حــول الســيارة، أحسســتُ بالفشــل الـذي بـاءت بـه محاولاتـه في فتـح أبوابهـا وقـد تعطّلـت دفعـة واحـدة، تلـك القرقعـة الميّتـة التـي تنشـأ عنـد الضغـط عـلى مقابـض الأبـواب المقفلـة، أمـا كيـف تسـنّى لي سـماع القرقعـة دون صوتــه؟.. فلاتصــال جســدي بالمعــدن. كان الصــوت قــد تسـلّل إلى أذني عـبر جسـدي في سرعـة وعنـف تحريـك المقبـض ومـا يرافقهـما مـن غضـب وقلـق وتوتـر يحـوّل المحاولـة إلى زعزعـة يختلـط فيهـا الصـوت بالحركـة، أحـسّ جسـدي المشـدود إلى الكـرسي بهـذه الهزهـزة التـي اخترقـت هـدوئي، ثـم تبعهـا صـوت القرقعـة متسـلّلا إلى أذني، بإمـكاني الآن أن أسـمع صوتـه لـولا عـازل الزجـاج، بـدأ الطنـين ينكمـش والصـدى يتراجـع، بـدأتُ أسـتعيد عافيـة بعـض أعضـائي عـلى الأقـل، فجرّبـتُ يـدي اليــسرى، ســحبتها بهــدوء يليــق بحاجــة الجــرح إلى أن بلغــت أصابعـي زر الحـزام، اتـكّأتُ عليـه بقـوة بـاردة فلـم يسـتجب.. الـزر عالـق، كتفـي تنـزف.. لمـاذا لم يتنـاول حجـرًا أو قضيبًـا أو غصــن شــجرة ليكــسر الزجــاج؟ ففــوق الألم حاصرتنــي رائحــة دمـاء مختلطـة باحـتراق عاصـف، بإمكانـك الآن أن تشـمّ عفونـة المـوت في فضـاء السـيارة المغلـق وقـد اختلـط بهـذا السـكون الفاتـن الـذي يشـبه سـكون المقابـر، ولكنـه قطـع حبـل تفكـيري بقولـه:

- أنت بحاجة إلى الذباب، أقصد إلى طنينه..

لم يمر على الحادث غير زمن يسير، والجو ليس حارًا:

- مـا زال أمامنـا متّسـع مـن الوقـت حتـى نقـع في ورطـة التعفّـن الحقيقيـة.

أنـا الناجـي الوحيـد مـن المذبحـة، أصابعـه لا تفلـح في فكّ هـذا الأسر، والألم يتفاقـم.. أيمكـن لي الآن أن أفهـم سرّ مـا جـرى؟ قاتـل اللـه السرعـة، فقـد حـدث كل شيء في طرفـة عـين، انهـمار الرصـاص والـدويّ وتوقـف السـيارة بحركـة جنونيـة، الأمـر ليـس حقيقيًـا والفكـرة تخـرج عـن حـدود العقـل والمنطـق. لكـن الواقعـة وقعـت، والرجـال الذيـن كانـوا حـولي تحوّلـوا فجـأة إلى جثـث بـاردة، وأصابعـي الواهنـة لا تكـفّ عـن المحاولـة مـع الـزر العالـق فيـما يقـف هـو في الخـارج بـلا حـول ولا وقـوة، بـدا كأنـه استسـلم لليـأس أخـيرًا، فـترك للحـادث قدريتـه، ليصنع اللـه مـا هـو صانعـه مـادام قـد بـدأه، ووجدتنـي أقـول رغـم يقينـي بـأنّ صـوتي لـن يبلغـه:

- هل ستترك الله يواصل ما قد بدأه؟

- أتعتقد أنه بإمكاني فعل أيّ شيء..

هـا أنـذا أسـمعه ويسـمعني، لم يتجـاوز صـوتي حـدود التخمـين، لكـن رده كان واضحًـا.. كيـف بلغنـي الصـوت مـن

وراء عقبـة العـازل الزجاجـي؟ أثمّـة عـازلٌ بيننـا؟ مـن الواجب أن أتأكـد مـرة أخـرى مـن الأمـر ولـو بملامسـة رأسي، ألقيـتُ قفـاي عـلى النافـذة في اللحظـة التـي حـاذرت فيهـا أن يكـون الفـراغ لا الزجـاج هـو مـا يسـتقبل رأسي، أحسسـتُ بعقبـة تـردني إلى الوعـي بـكل الحقيقـة التـي أنـا فيهـا، عالـق داخـل السـيارة مـع المـوتى وكتفـي تنـزف والرجـل يفشـل في فـكّ الحصـار، فيستسـلم لهـذا اللغـو:

- من هؤلاء؟

- لا أعرفهم.

- من أين جئت وإلى أين تمضي؟

- لا أعرف.

- من أطلق النار عليكم؟

- لا أعرف.

- لم تكن المقصود من الهجوم.

- إصابتي في الكتف.

- تمويه.. مجرّد تمويه...

بـدا أنّ الاتهـام سـوف يلاحقنـي، وصمّـم في الخـارج عـلى أنّ الفاعـل طـرف مـع الضحايـا:

- هذه الخدعة لن تنطلي على الشرطة.

سألته بنفاد صبر:

- أيّ خدعة؟

- أنـــت مــن قدتهــم نحــو حتفهــم، فالكمــين يشــبه أســاليبك.

- هذا قدر الله، وأنت تشهد..

- لا أشهد على شيء لم أره.

- لكنك تتهمني، ألا ترى أيّ مصيبة تقودني إليها؟

- أنــت مــن فعــل بنفســه مــا فعــل، حــاصرتَ نفســك في الســيارة، ثــم أطلقــتَ الرصــاص عــلى مرافقيــك، وأصبــتَ في خــلال ذلــك كتفــك حتــى تقنــع التحقيــق بأنــك الضحيّــة الوحيــدة الناجيــة، ثــم اســتدعيتني لإنقــاذك والشــهادة لصالحــك، أيّ جنــون هــذا؟..

- صدّقني لا أعرف من فعل بنا كل هذا.

- المشــكلة ليســت في تصديقــك أو تكذيبــك، الأمــر لا يعنينــي عــلى أيّ وجــه، فأنــا واحــد مــن هؤلاء المــوتى إلى جــوارك، باســتطاعتك قتــلي الآن مثلــما قتلتهــم لــو شــئتَ أو جعــلي أشــهد لصالحــك في تحقيــق الشرطــة مــع أني مؤمــن تمــام الإيمــان أنّ

القضيـة كلهـا مـن تلفيقـك.

قلـتُ ببـكاء حـار وأنـا أتقلّـب بـين الألم الـذي ينخـر كتفي ويـأسي مـن موقفـه الغريب:

- ما يحدث يخرج عن يدي.

هزّ كتفيه بسخرية وهو يقول:

-أعرف هذا النوع من السلوك الإجرامي.

- أنا لم أقتل.

- لكنك دبّرت الجريمة.

- الأمر ليس كما تفهمه.

- يمكنـك الآن أن تغـيّر رأيـك في مسـألة عـدم قـدرتي عـلى فتـح أبـواب سـيارتك.

- تقصد.. أن أجعلك تحرّرني؟

-نعم الأمر بغاية البساطة..

الأمــور تتعقّــد، لا يــد لي في مــا يحصــل، استســلمتُ لأوجاعــي بغمضــة هــروب مباغتــة وأنــا أهمــس:

- بل سأترك الله يواصل ما قد بدأه.

الحلم 30

رأيت فيما يرى النائم...

أنّ أحلامـي انقطعـت، ولا سـبيل إلى وصلهـا مـرة أخـرى، عرفـتُ ذلـك مـن خـلال حـوار سـمعته مـن رهـطٍ لم أتبـيّن ماهيتهـم عـلى وجـه الدقـة، كان الظـلام يخفـي ملامحهـم، فلـم أسـمع منهـم إلا أصواتهـم.. قـال أحدهـم:

- لقد حلمتَ بما يكفي..

فرد آخر:

- لكل شيء نهاية.

ثـم عرفـتُ بعـد ذلـك وبطريقـة تسـقط مـن يـد الـشرح والتعليـل، كيـف أنّي مُنِعـتُ مـن الحلـم، المهـم أنّ الرجـال قالـوا ذلـك بصمتهـم، كـما قالـوه مـن خـلال تبجّحهـم بتلـك الخصلـة التـي اسـتأثروا بهـا وحُرِمتهـا..

الآن... وداعًـا للـرؤى ولـكل لذيـذ طمعـتُ فيـه فخبـتُ،

ووجدتنـــي أوطّــن النفــس عــلى صــبر هــو كل زاد ليــلي، مــاذا يعنــي أن تُحْــرَمَ الحلــم؟ ومــن ذا الــذي يملــك تلــك القــدرة العجيبــة عــلى حرمـاني؟.. ثـم إنّ أحلامـي لا تقـوّض أنظمـة حكم، ولا تعتــدي عــلى حــقّ أيّ مخلــوق، ولا تأخــذ مــما ليــس لي، ولا تمــسّ النــاس بــالأذى، هــي أحــلام لا أكــثر، وحــي يصــدق كواقــع في منطقــة مــا مــن الحــسّ، وفي ســاعة مــا مــن الوقــت، ثــم أصحــو فــلا أجــد لــه أثــرًا..

وقاطعني أحدهم بقوله:

- المشكلة أنك تدوّن أحلامك..

- وما وجه الخطأ في ذلك؟

وأرعد صوت آخر من عمق الظلمة:

- قصارى جهد الناس أن تبحث عن تفسير لأحلامها.

تذكّــرتُ ابــن ســيرين، وقــادني الخيــال إلى معــرض الكتــاب، وقفــتُ عــلى عتبــة بابــه، لاحــت القاعــة فســيحة الأرجــاء، سرتُ خفيفــا كالنســمة عــلى الموكيــت الملــوكي الأحمــر، قابلــتُ امــرأة لأول مــرة في حيــاتي، تأبطــت ذراعــي ورحنــا نتجــوّل بــين أقســام الكتــب، ســمعتُ طنــين الذبــاب يتعــالى حولنــا.. فهمســت قائلــة:

- لا تقلق هؤلاء قدموا مثلنا لزيارة المعرض..

تهافتـوا كالذبـاب الجائـع عـلى كتـاب واحـد دون غـيره "تفسـير الأحـلام"، وسـألتني إن كنـتُ أود طلـب كتـاب، فهـي فرصـة مواتيـة لانتقـاء مـا أريـد، فقلـتُ:

- لسـتُ بحاجـة إلى الكتـب، مـا أكـثر مـا كتـب الفلاسـفة والحكـماء والشـعراء والأدبـاء، حتـى اللـه كتـب إلينـا عـن طريق رسـله، لكـن.. لا شيء تغـيّر..

زادت وحشـية الذبـاب، واسـتفحل شرّ تهافتـه، وعـلا طنينـه، وحـين اقترحـتُ عليهـا العـودة إلى شـقّتها لم تمانـع، لكـن صـوت أحدهـم قطـع الطريـق علينـا بقولـه:

- لا فحش..

سألتُ بنبرة الخائفُ:

- حتى في الحلم؟

فقال:

- لم يعـد لـك الحـقّ في الحلـم، فـما بالـك بالزنـا.. لا علاقـة تربطـك بالمرأة.

- لعلّه الحبّ.

قال الصوت وهو يمضي في غيهب الليل:

- الحبّ هو الحلم الأكبر الذي تتفرّع عنه كل الأحلام.

الفهرس

الإهداء	05
المقدمة	07
الحلم 01	10
الحلم 02	12
الحلم03	14
الحلم 04	15
الحلم 05	17
الحلم 06	19
الحلم 07	22
الحلم 08	25
الحلم 09	27
الحلم 10	32
الحلم 11	35
الحلم 12	38
الحلم 13	43
الحلم 14	46
الحلم 15	50
الحلم 16	53
الحلم 17	57
الحلم 18	59
الحلم 19	62
الحلم 20	65

الحلم 21	68
الحلم 22	72
الحلم 23	76
الحلم 24	82
الحلم 25	86
الحلم 26	89
الحلم 27	92
الحلم 28	96
الحلم 29	100
الحلم 30	106